الفصل الثاني

نظرية الحجاج، التأسيس والآفاق

"البلاغة نص ليس هدفه الإقناع فحسب، أو الإشارة إلى واقع خارجي أو الحيرة الممتدة بين المعنيين الحرفي والمجازي، بل هي أيضا صراع النصوص والمتناقضات داخل الإبداع حتى لا يعرف أي منها طغى على الآخر"(١).

١ - مهاد اصطلاحي

إن مبتدأ القول في الحجاج ينطلق من متابعة الدلالة اللفظية للفظة حجاج(٢) نفسها باعتبارها علامة دالة على الفعل اللازم لإقناع الآخرين برأي معين، فقد أوردت المعاجم المتخصصة أن اللفظة ترجع إلى الجذر اللاتيني (*Arguere*)، والتي تعني إظهار

---

(١) بول د يمان: **العمى والبصيرة**، ترجمة سعيد الغانمي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١، ١٩٩٥/ ٧.

(٢) تعني لفظة حجاج في اللغة العربية المنازعة بالحجة أو الدليل أو الرهان، أي مقابلة الحجة بأختها، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة حجج، وجدل، وانظر المرحوم عبدالله صوله، **الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية**، منشورات جامعة منوبة، سنة ٢٠٠١، ص ١٧.

الشيء وتلميعه إلى أين يصبح لامعا[٣]، وفي معجم (Grand Robert) تدل اللفظة على استعمال الحجج لتحقيق نتيجة معينة في سياق مناقشة فكرية والاعتراض عليها[٤]، أما معاجم الفلسفة المتخصصة فقد حددت الحجاج أو المحاججة (*Argumentation*) بكونها عملية فكرية تترابط فيها الحجج والأدلة وفق طريقة تعرض بها الفكرة المقصود إبلاغها والإقناع بها[٥]، من خلال إنشاء تأكيدات وقناعات متصلة بتصرفات سياقية ومقامية[٦]، مما يعني قيام التحاجج من حيث كونه فعلا على منطق استدلالي[٧]

---

(٣) بنور عبدالرزاق، **جدل حول الخطابة والحجاج**، ص٢٥، وانظر المقدمة الضافية التي قدم بها حافظ إسماعيلي علوي الكتاب الجماعي المهم عن: الحجاج، مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ١/ ٢، فقد أفدنا منها إفادة موسعة، كما أفدنا بالكتاب كله في أكثر من جانب ومستوى، وانظر أندريه لالاند، **موسوعة لالاند الفلسفية**، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، ط٢، بيروت، سنة ٢٠٠١،١/ ٩٤.

(٤) Le Grand Robert, Dictionnaire de la langue Francaise ,Paris ,1989, p 535.

(٥) جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، ١/ ٤٤٦.

(٦) P.Oleron ,Largumentation ,que sais-je/ Paris ,P.U.F,1983, p 22

(٧) الاستدلال يعني بحسب الصيغة طلب الدليل باتخاذ المعنى الأول المفهوم من اللفظ دليلا على معنى ثان، كأن يستدل من كثير رماد القدر بأنه مضياف، وبعيدة مهوى القرط بطول عنقها، وهو الغرض من القول، أو معنى المعنى عند الجرجاني، انظر **دلائل الإعجاز**، ص ٢٦٣، وانظر توسعا شكري مبخوت، **الاستدلال البلاغي**، ص ٤٠. أما الاستدلال المنطقي فعملية ذهنية ينتقل فيها من مقدمات إلى نتائج لعلاقة بين الطرفين، وهو نوعان يقوم الأول فيهما على الاستقراء (Raisonement inductif)، بينما يتأسس الثاني على الاستنتاج (Raisonment deductif)، انظر محمود قاسم، **المنطق الحديث ومناهج البحث**، مكتبة الإنجلو مصرية، ط٣، القاهرة، سنة ١٩٥٣، ص ٣٧. وانظر أيضا هشام الريفي، **الحجاج عند أرسطو**، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في

تثبت به قضية أو تدحض بها، على أن يكون هناك انسجام من شكل ما بين المقدمات ونتائجها التي توفر الحكم أو الحجة الأساسية التي تنطوي عليها الدعوى المقصودة[٨].

وفي هذا الإطار التعريفي تتنزل تصورات مهمة مثل تصور (Sillars) الذي يعدّ الحجاج عملية عرض دعاوى تتعارض، وتتضارب فيها الآراء مدعومة بالعلل والدعامات المناسبة، بغية الحصول على الموالاة لإحدى تلك الدعاوى، إذ يسمح منطق الحجاج بفحص مختلف وجوه التفاعل الحجاجي، وكيف يمكن أن تؤثر الحجج المضادة في تدقيق وصقل نظرية ما عند دخولها في نزاع مع حجج تعترض عليها، أو حجج تناضر نظرية تدعي عكس ما ذهبت إليه النظرية الأولى[٩]، أما **شفرين** فيعده جنسا من الخطاب، تبنى فيه جهود الأفراد بدعامة مواقفهم الخاصة، في الوقت نفسه الذي ينقضون فيه دعامة خصومهم.

كما تطلق لفظة حجاج ومُحَاجَجة (Argumentation) عند **بريلمان وتيتيكاه** على العلم وموضوعه، ومؤداها عندهما درس تقنيات الخطاب التي تؤدي بالذهن إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة التسليم[١٠]، أما **أندرسن**

التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، سلسلة الآداب، كلية الآداب بمنوبة، المطبعة الرسمية، ص٩٩.

(٨) وردت تعريفات متعددة في المعاجم، ولكنها تتفق في المعنى سالف الذكر، ولعل أهمها معجم **أندريه لالاند** (Andre Laland) Vocabulaire technique et critique de la pholosophie ,ed P.U.F, pp 78-79.

(٩) حسان الباهي، **العلم والبناء الحجاجي**، ص ٢٠٢.

(١٠) ميز بريلمان في كتابه المهم عن الحجاج بين الحجاج الإقناعي، والحجاج الاقتناعي. انظر Prelman et Tytecar ,traite de l ' argumentation, p 92، لقد تم التمييز بين الحجاج والإقناع بوساطة التوكيد

(Inderson) **ودوفر** (Dover) فيعدانه طريقة لاستخدام التحليل العقلي والدعاوى المنطقية بغرض حل المنازعات واتخاذ قرارات محكمة، والتأثير في وجهات النظر والسلوك، وقد شايعهم في هذا التعريف كل من **روبرت هوبر وماكبورني وميلز وفيشر**، كما يركز كل من **أوتس ماس وفيفيجر وهاينمان** على طبيعة العمل اللغوي الذي يحكمه سياق حجاجي معين في وضعية تواصلية ما؛ يتم فيها عرض ضروب من الفرضيات والدوافع والاهتمامات(١١).

أما **فولكي** (Foulquie) فيبني الحجاج على الشك والمحتمل، ما دمنا لا نحاجج ضد البديهيات(١٢)، وربما توافق هذا التصور مع مفهوم القياس الخطابي عند **أرسطو** من حيث احتماليته وظنيته، مما يجعل من النتيجة غير ملزمة تبعا لذلك، فالفكرة تسمح بالتفكير في الشيء وضده في الآن نفسه(١٣). كما تؤكد **آموسي** كونه عملا قوليا

الذي يمثل جوهر الفعل الإقناعي، أما المحاججة فتتوسل المنطق لتحقيق أغراضها. انظر محمد العبد، **النص الحجاجي العربي**، ص٤٥. وانظر محمد سالم ولد محمد لمين الطلبة، **"مفهوم الحجاج عند بريلمان، وتطوره في البلاغة المعاصرة"**، عالم الفكر، الكويت، مجلد ٢٨، عدد ٣، مارس، سنة ٢٠٠٠، ص٦٥.

(١١) P.Breton, Largumentation entre information et manipulation ,in la communication etat des savons ed Sciences humaines, p17-19.

(١٢) محمد طروس، **النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية**، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، سنة ٢٠٠٥، ص ٨.

(١٣) عباس رحيلة، **الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم ٤٠، ط١، سنة ١٩٩٩، ص ٢٣٨.

(١٤) Amossy, Largumentation dans le discours, p 33-39

مركبا من أعمال لغوية أخرى، لها أثر في مقام التلفظ والمتلقي للخطاب[١٤]، وربما كانت وظيفته محاولة جعل العقل يذعن لما يطرح عليه من أفكار، أو يزيد في درجة ذلك الإذعان إلى درجة تبعث على العمل المطلوب.

إن القول عن خطاب ما بأنه حجاجي يعني احتواءه على ملفوظين اثنين على الأقل ؛ يقوم أحدهما بتبرير الآخر، فيسمى الأول حجة الرأي المعروض والثاني نتيجة لحجة الرأي المعارض[١٥]، يتنزلان في سياق اتصال خطابي بين متحاورين، في سياق تحاججي معين[١٦]، على أن الحجاج مثلما أنه ليس موضوعيا محضا فإنه ليس ذاتيا محضا؛ لأن من مقوماته حرية الاختيار على أساس عقلي، كما أنه يقوم رأسا على علاقة منطقية استنباطية غير تصورية كما هو الحال في خطابات أخرى كالخطاب الوصفي – مثلا – والذي يبنى على علاقة تصورية تربط الأحداث أو الحالات مقيدة بزمان تصوري معين[١٧]، وثمة ألوان عدة للمحاجَجَة البسيطة ربما يكون أكثر شيوعا في الخطاب القانوني في المرافعات التي تراعي عموم السامعين في ربطهم بين القضايا والوقائع، وعادة ما يصطلح على هذا النوع بالمحاجة بالرتابة (Argumentation par la Banalite)، وعلى صعيد آخر يمكن القول بأن الحجاج في ارتباطه بالمتلقي يؤدي إلى حصول عمل ما أو الإعداد له.

ويذهب **بريلمان** إلى أن من خصائص الخطاب الحجاجي الذي يميزه عن البرهان أو الاستنتاج إمكان النقض أو الدحض مما يجعل من إمكانية التسليم بالمقدمة المعطاة

---

(١٥) حسان الباهي، **العلم والبناء الحجاجي**، ص ٢١٦.

(١٦) محمد برقان، **"الخطاب الحجاجي والاتصال"**، مجلة كتابات معاصرة، عدد ٥٨، سنة ٢٠٠٥، ص ٢٤-٢٥.

(١٧) محمد العبد: **"الخطاب الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الاقناع"**، ص٤٤.

أمرا نسبيا بالنسبة إلى المخاطب[١٨]، وتتصدر المحاججة كوظيفة لسانية قائمة الوظائف اللغوية بالرغم من عدم إشارة الدارسين الذين تناولوا موضوع وظيفة اللغة إليها مثل: بوهلر وجاكبسون وغيرهما ...إلخ، كما يقف الخطاب الحجاجي موقفا وسطا بين الخطاب التربوي (education) والخطاب الدعائي (propagande).

٢- الحجاج والصيرورة

ليس سبيلنا في هذا المقام التأريخ للبلاغة الحجاجية الأرسطية في مناهضتها المستمرة للبلاغة السوفسطائية[١٩]، وأساليب ردها المنطقية والجدلية المختلفة التي عوّل فيها أرسطو كثيرا على آراء أستاذه أفلاطون[٢٠]، نحو بناء نشروع حجاجي منطقي يحصن المجتمع من اتداعات السوفسطائية، وتبكيتهم على الحقيقة بالإقيسة الزائفة والحجج

---

(١٨) تقوم المحاججة على الوظائف التالية: ١- وظيفة الدحض والنقض، ٢- وظيفة تعديل الرأي وإبرام رأي جديد مهذب وملطف، ٣- وظيفة إنشاء وتكوين، انظر: علي الشبعان، **الحجاج والحقيقة**، ص ١٣.

(١٩) عن تاريخ السوفسطائية من حيث هي تيار عقلاني وثقافي موحد، مهتم ببلاغة القول الواقعي من خلال ارتباطها المبدئي بالخطابين القانوني والسياسي. ينظر: Philippe Breton et Gilles Gauthier, Histoir des Theories de L argumentation ,Paris ed la decouverte, 2000, P3-4-14.

(٢٠) عد أفلاطون - مثلا - البلاغة ما فيها الحجاج مجرد فن للمعرفة، تسمح بالتقريض والإطراء والديماغوجية، كما أنها في خدمة الاستغلال والقوة، انظر أحمد يوسف، ص ٢٦. وانظر أيضا: محمد سالم الأمين الطلبة، **الحجاج في البلاغة المعاصرة**، ص٤٦. وكذا هادي فضل الله، **السوفسطائية من وجهة نظر منطقية**، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، عدد ٩٩، سنة ٢١، شتاء ٢٠٠٠، ص١٤٩.

الموهمة[٢١]، وما نظرية العلم الأرسطية إلا توسيع وتجديد في نظرية المعرفة عند أفلاطون في بعدها الإقناعي الذي يطمع إلى تأسيس منطق عقلاني سليم لاستكشاف الحقيقة، وبناء المعرفة[٢٢].

فلقد تكلفت دراسات غربية عديدة، وأخرى عربية بالفعل التأريخي مسلطة الأضواء على المراحل الحاسمة للصيرورة البلاغية والإقناعية، بدءً من تأسيس فن الجدل على يد **بروتاغوراس**[٢٣]، ووصولا إلى المجهود الجدلي العربي المؤسس على علم الكلام في امتزاجه ببلاغة القول[٢٤] إلى عتبات عصر العولمة، مرورا بالقرون الوسطى والبلاغة المدرسية التي تفاعلت مع التصورات اللاهوتية والنقدية الأدبية الكلاسيكية، ومما تجدر الإشارة إليه أن **أرسطو** (ت ٣٢٢ ق م) جعل السؤال تابعا للجدل، ووجها من وجوهه المتعددة، والمنضوية تحت فكرة مركزية تستوعب وضع القواعد المنطقية التي تمكن الإنسان من التفكير بشكل صحيح، معصوم من الزلل إلى حد بعيد[٢٥].

---

(٢١) علي محمد علي سلمان، **كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج، رسائله نموذجا**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت، سنة ٢٠١٠، ص٣٥.

(٢٢) انظر: حمو النقاري، **حول التقنين الأرسطي لطرق الإقناع**، ص١٠.

(٢٣) Joelle Gardes Tamine , La Rhetorique, Paris, Armand Colin, Masson, 1966, p24

(٢٤) عن التأثير الفلسفي في البلاغة يمكن مراجعة: J.Lauxerois, Lusage de la Parole publique, Preface de la Rhetorique dAristote, Paris, Pocket, 2007, p8-9 وينظر أيضا: محمد النويري، **"علم الكلام والنظرية البلاغية عند العرب"**، كلية العلوم الإنسانية، دار محمد علي الحامي، صفاقص، ط١، تونس، سنة ٢٠٠١، ص ١٠ وما بعدها.

(٢٥) انظر: محمد حسين الطبطبائي، **أسس الفلسفة والمذهب الواقعي**، تعليق مرتضى المطهري، وتعريب محمد عبدالمنعم الخاقاني، ١/ ٦٨.

كما أنه الإمكانية الوحيـدة التي تضفي سمة الفعل (l'acte) على التفكير، وهـذا ما يعرف في التفكير الفلسفي بـ (الفعل التفكيري) (L'acte depencer)، والذي يقوم على ثلاث علاقات أساسية هي: الإيتوس (أخلاق القائل) والباتوس واللوغوس[٢٦]، وقد قرر **أرسطو** منذ زمن بعيد مشاركة الناس بدرجات متفاوتة في الجدل والخطابة من خلال محاولاتهم المتعددة في نقد الأقوال أو تأييدها، والدفاع عن أنفسهم[٢٧] أو الشكوى من الآخرين، فقد نظر إلى البلاغة بوصفها كشفا نظريا خالصا يقوم على نظام من الخطط بهدف تعديل سلوكيات وعواطف الناس، وإقناعهم بوجهة النظر الخاصة[٢٨]، وعدّ **كونتليان** (Quintilian) البلاغة في سياق الخطابة والإقناع فنا للخطاب الجيد،إذ ينحصر هدفها في توفير القواعد، وإعداد النماذج الكفيلة بمساعدة المتكلم لإقناع سامعيه بحديثه، وقدرته على إثارة الشيء الذي يدافع عنه، فالبلاغة بهذا الوصف علم قواعد القول الصائب والسديد[٢٩]، ويمكننا تبيان هذا التصور بالمخطط التالي:

---

(٢٦) أرسطو، **الخطابة**، ترجمة عبدالرحمن بدوي، ص٢٩، وانظر حمادي صمود، **من تجليات الخطاب البلاغي**، ص ١٠٢.

(٢٧) أرسطو، **الخطابة**، ترجمة عبدالرحمن بدوي، ص٢٣. وانظر ابن رشد، **تلخيص البرهان**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢، ص٦٢، فقد وضح أرسطو الفروق بين الحجاج والبرهان من حيث المنهج والموضوع والغاية كارتباط البرهان بالخطاب العلمي وارتباط الحجاج بالخطابة وضرورية النتيجة في البرهاني وعدم اضطراريتها في الحجاجي .انظر في هذا السياق :محمد الولي، **السبيل إلى البلاغة الباتوسية الأرسطية**، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ص٦١ .

(٢٨) انظر: محمد مفتاح، **التلقي والتأويل**، ص٣٨ .وانظر: Reboul, la Rhetorique,P.U.F,1984,p 30

(٢٩) برند شبلنر، **علم اللغة والدراسات الأدبية**، ص ١٦٣و ١٦٧.

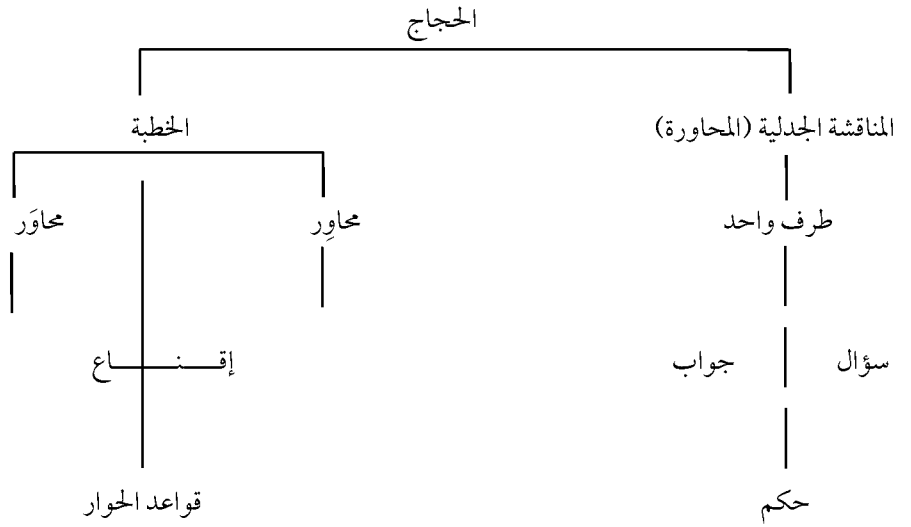

كما يكفي في هذا المقام التنبيه إلى الملاحظ الآتية:

١- الأثر السوفسطائي في نشأة وتطور بلاغة الحجاج الإغريقية، وازدهار نظرية الحجاج في الثقافة البلاغية الغربية بعامة، حتى قيل كان كل شيء في اليونان خاضعا للشعب، وكان الشعب خاضعا للخطابة[٣٠].

٢- ارتكاز الفعل الحجاجي على المقومات اللغوية والاجتماعية والمنهجية بدرجة أولى.

٣- تكافل الفعل البلاغي الخطابي مع الفعل الحرفي في نشأة العمران البشري وديمومته[٣١].

---

(٣٠) انظر: محمد الولي، **السبيل إلى البلاغة الباتوسية الأرسطية**، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ص٦١.

(٣١) محمد الصغير بناني، **البلاغة و العمران**،ص١١

٤- استمرار الأثر الأرسطي السوفسطائي في الفكر اللساني الحديث عبر التداولية اللسانية عند أوستن وسيريل وفلسفة الظواهر عند **هايدجر** والهرمينوطيقا عند **غادامير**[٣٢].

٥- ارتباط الحجاج ببلاغة التزييف التي تتخذها السلطة لبسط السيطرة والنفوذ على العامة، في ضوء الخطابة الإغريقية والرومانية العتيدة[٣٣].

٦- تأرجح الحجاج البلاغي بين اللذة والهوى والذرعية السلبية من جهة وبين الخير والمثل والحقيقة من جهة ثانية .

٧- أسبقية البحث الحجاجي الجدلي عند أرسطو على البحث البلاغي البرهاني وخصائصه العامة.

٨- السمة الشمولية الإنسانية المميزة للخطاب الأرسطي الدائر حول الحجاج والبلاغة، وتنزله في سياق الوعي بالتداخل الاختصاصي(Interdisciplinaire)[٣٤].

٩- قيام الحجاج الأرسطي على المقابلة المميزة بلاغة الخطابة عن بلاغة الشعر[٣٥].

---

(٣٢) انظر: محمد السيد أحمد، **الهيرمينوطيقا عند غادامير**، القاهرة، دار الثقافة، ط١، ١٩٩٣، ص١١. وانظر أيضا: J.Kristeva, Le langage cet inconnu une initiation a la linguistique, Paris, Seuil. P276.

(٣٣) Olivier, Reboul, introduction à la rhétorique, paris, PUF, 1991, p17-18.

و انظر: ابن رشد، **تلخيص الخطابة**، تحقيق، عبد الرحمن بدوي، دار القلم، د.ت، المقالة٢.

(٣٤) يمكن تلمس هذا البعد في قول أرسطو نفسه "إن الخطابة فرع من الجدل وأيضا فرع من علم الأخلاق يمكن أن يدعى بحق علم السياسة" انظر أرسطو، **الخطابة**، تر، عبد الرحمن بدوي، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٦، ص٣٠.

(٣٥) المرجع نفسه، ص١٩٢.

١٠- الرفض الأرسطي للبلاغة السوفسطائية قائم على رد التبكيت ومخالفة المشهور واستعمال الصيغ اللغوية غير المألوفة، والدفع إلى الكلام الفارغ المكرر والإيقاع في الخطأ[٣٦].

١١- تتنوع الحجج الأرسطية ما بين تصديقات غير صناعية مثل القوانين الجاهزة والشهود والعقود والاعترافات بالإكراه والقسم[٣٧]، وحجج صناعية مثل الاستدلال الخطابي والإيتوس (المظهر العاطفي للمتكلم) والباتوس (ميول المتلقي)[٣٨]. ناهيك عن أهمية الترتيب في عرض الحجج المختلفة[٣٩]، إذ لا قيمة للحجة ذاتها إن لم تعرض وفق خطة قولية، ترتبها تدريجا في سلم معقول.

١٢- الاستدلال الحجاجي الأرسطي قائم على المنطق الصوري؛ بخلاف الاستدلال الحجاجي العربي الذي يستمد براهينه من منطق اللغة الطبيعية ضمن دائرة الاحتجاج المجازي[٤٠]، في ضوء التعاضد الحاصل بين القياس المضمر (الاستنباط) والمثال (الاستقراء) مع إعطاء أهمية معتبرة للجوانب النفسية والاجتماعية المشكلة لمقام الاحتجاج[٤١].

---

(٣٦) المرجع نفسه، ص١٩٢.

(٣٧) أرسطو، **الخطابة**، ص٧١-٧٣-٧٥-٧٦، وانظر عرضا مفصلا في: هشام الريفي، **الحجاج عند أرسطو**، ص٢٦٢.

(٣٨) انظر: محمد الولي، **السبيل إلى البلاغة الباتوسية**، ص٧٣ وما بعدها. يقول الباحث: "**إن إقناع شخص ما يقتضي إثارة انفعاله، وبهذا تجب معرفة نوازعه وميوله ورغباته واستعداداته الذهنية**"، انظر المرجع نفسه، ص٧٦.

(٣٩) محمد الولي، **من بلاغة الحجاج إلى بلاغة المحسنات**، ص١٣٠ وما بعدها.

(٤٠) جبيب أعراب، "**الحجاج و الاستدلال الحجاجي**"، مجلة عالم الفكر، يوليو ٢٠٠١، ص١٢٥.

(٤١) محمد السالم محمد الأمين الطلبة، **الحجاج في البلاغة المعاصرة**، ص٤٠.

١٣- تقوم العلة الحجاجية عند أرسطو على مراحل ثلاثة، يبينها المخطط التالي:

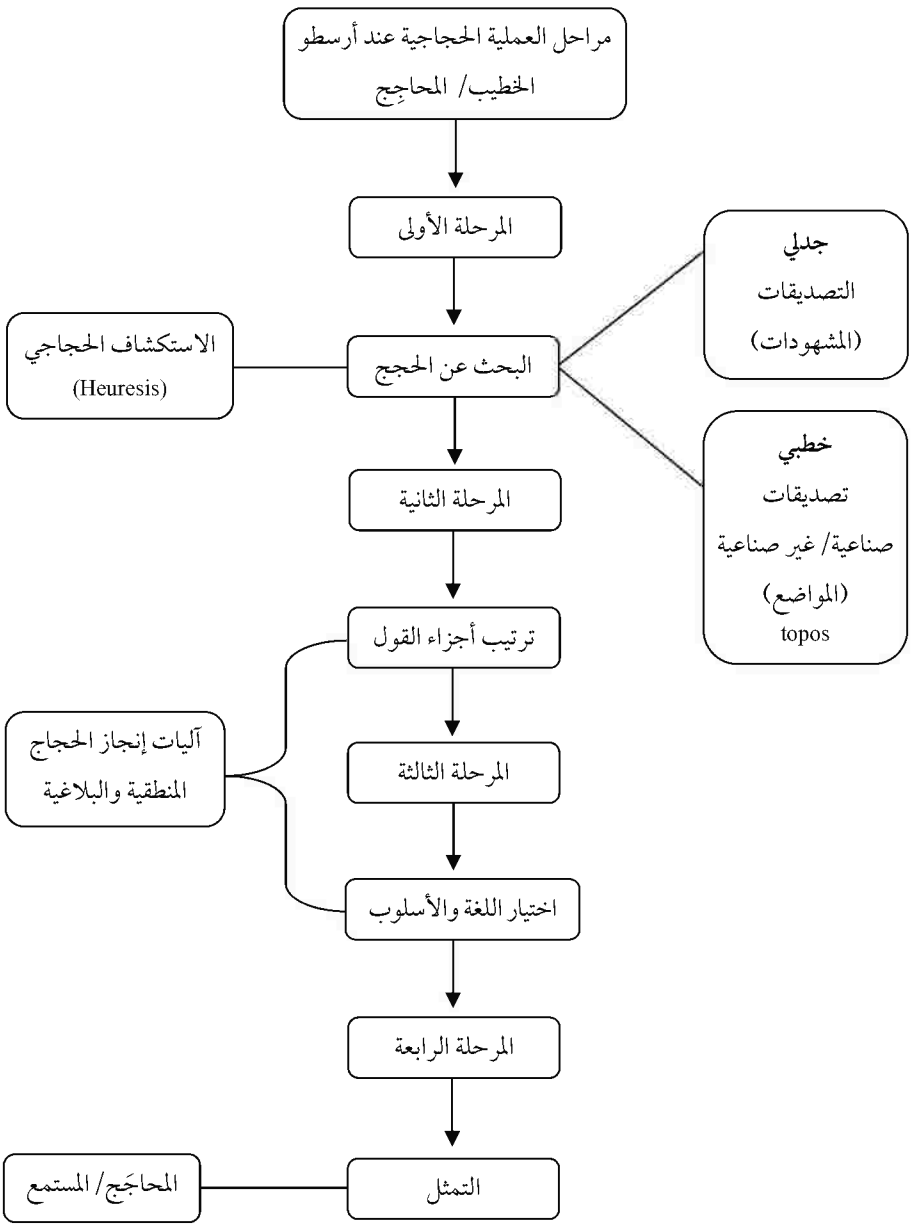

إن هذه الملاحظ تشكل ركيزة مهمة في نظرية الحجاج الكلاسيكية في تقاطعاتها الحتمية مع الخطابة بوصفها منجزا لغويا إنسانيا واجتماعيا من جهة والبلاغة باعتبارها قوانين عامة تحكم القول الخطابي، وتوجهه نحو الاستدلال الحجاجي، وضمن هذا التصور يتحدد لنا وجود الإنسان بوصفه العامل الرئيس للوجود المدني. ويلخص الجدول التالي أنواع الخطابة الأرسطية، وأدواتها الاستدلالية التي تقوم عليها، بوصفها أنموذجا أصيلا للدراسات الحجاجية الأولى[٤٢].

واللافت للنظر أن هذا التصنيف الثلاثي للخطابة أضحى موجها مهما لبناء أنواع خطابية معاصرة يكثر تداولها في حياة الناس، فمن النوع المشوري تتشكل نصوص البيانات البرلمانية، ومحاضر المداولات العلمية، والبيانات الختامية في المؤتمرات، ومن النوع الثاني يتشكل الخطاب القانوني والقضائي مثل: المرافعات الجنائية، وتنظم إليها المناظرات والحوارات الفلسفية الجدلية، بينما يتشكل النوع الثالث من خلال المقال الصحفي الدعائي والخطب السياسية، وشتى نصوص وخطابات المدح والذم، مثل خطابات التأبين والافتتاحيات الرسمية والخطب الدينية الموسمية.

لقد دعا أرسطو في كتابه "الخطابة" إلى أن يحدث التآلف والتضامن بين البلاغة والحجاج؛ ليكون أداة طيعة في يدها لتمارس الإقناع والتأثير في ضوء العلاقة التفاعلية بين المحاجِج والمحاجَج، يؤطرها السياق الحالي بكل مكوناته اللغوية والنفسية والثقافية والاجتماعية[٤٣]. وتنتظم العلاقة الرابطة بين الفلسفة من حيث هي جدل عن الحقائق ولها، والخطابة من حيث هي طرائق لتحقيق الخطاب الفلسفي وفق المؤثرات الحجاجية،

---

(٤٢) أرسطو، **الخطابة**، ص١٥٤-٦٥. وانظر هنريش بليث، ص ٣٠.

(٤٣) المرجع نفسه، ص٥٩.

كما يذهب أرسطو إلى بسط أنـواع الحجج التي يقوم عليها الحجاج الخطابي فيما يبين بالشجر التالي(٤٤):

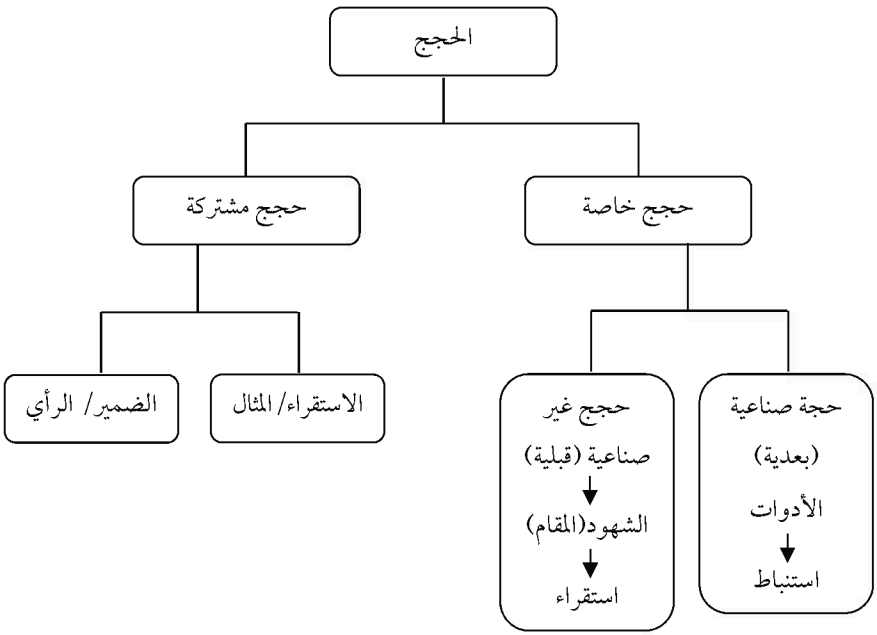

٣- الحجاج والراهن

يرتد البحث في الحجاج من زاوية بلاغية إلى أعمال **بريلمان** وزميله **تيتكا** إذ يعدّ كتابهما "Traite de l'argumentation: la nouvelle rhétorique" من أهم الكـتب الضخمة المصنفة في الحجاج(٤٥)، وقد لاقت أفكارهما ترحابا كبيرا بين الدارسين بعيـد ظـهور

(٤٤) أرسطو، **الخطابة**، ص١٥٤، وابن رشد، **تلخيص الخطابة**، ص٢١١-٢٣٨.

(٤٥) هما باحثان في الفلسفة وعلم الاجتماع من جامعة بروكسيل بسويسرا ألفا سنة ١٩٥٨ كتابهما الشهير في الحجاج .

الكتاب في خمسينات القرن العشرين، وذلك للروح الإنسانية والتجديدية الناقدة التي تميز بها، فقد انطلق الباحثان فيه واصفين وناقدين للحدث البلاغي في أعمال **أرسطو** ومدرسته المنطقية، وأعمال السوفسطائية في المحاججة المغالطة إلى تصور البلاغيين في بدايات القرن العشرين، قصد بناء تصور جديد لبلاغة الحجاج ترهن الفعل الحجاجي بالممارسة اللغوية البلاغية بعيدا عن الأثر المنطقي الأرسطي، وعليه يتحدد الحجاج بكونه دراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم(٤٦).

فالحجاج الفعال هو ذاك الذي وفق فيه صاحبه إلى جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين(٤٧)، بشكل يبعثهم على العمل المطلوب، من خلال تأليف المقدمات المشهورة والمسلمات، وبنائها بناء سليما لتحقيق الإفحام(٤٨).

هذا وقد ميز **بريلمان وتيتكا** بين حجاج عقلاني قوامه العقل، وهو الحجاج الفلسفي الذي يتوجه به إلى متلق نخبوي، يرمي من ورائه إلى إسكات صوت الهوى فيه، وإلى جعل العقل قواما للاستدلال، فهو حجاج لا شخصي ولا زمني، والحجاج

---

(٤٦) Chaim Prelman et Olbrechts Tyteca, Traite de l argumentation, p61-62

(٤٧) وردت لفظة حجاج عند القدماء مرادفة للفظة جدل، ويقول ابن منظور في اللفظة: "حاججته أحاجه حجاجا ومحاجة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها.. والحجة الرهان، وقيل الحجة ما دوفع به الخصم، انظر ابن منظور، **لسان العرب**، مادة حجج. والحجة والدليل واحد، الشريف الجرجاني، **التعريفات**، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، سنة ٢٠٠٣، ص٦٧، وانظر أيضا في تحديد المصطلح في التراث العربي: القاضي عبد النبي بن عبد الرسول نكري، **جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، "دستور العلماء"**، تحقيق قطب الدين محمود غياث الدين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط٢، بيروت، سنة ١٩٧٥، ٢/ ١٤.

(٤٨) انظر: محمد رضا المظفر، **المنطق**، دار التعارف للمطبوعات، ط٢، بيروت، سنة ١٩٨٥، ص٣٣٥.

الثاني يقصد دغدغة العواطف وإثارة الأهواء الخاصة والنزعات المذهبية الجماعية[٤٩]، واستنفارا لإرادة جمهور السامعين، ودفعهم إلى العمل المرجو إنجازه، مهما تكن الطرق الموصلة للإقناع بذلك العمل غير معقولة، والهدف المرجو تحقيقه إما الإقناع "La persuation" أو الاستدلال (démantration)[٥٠].

وأما الهدف الذي يرومه الباحثان فهو الاقتناع (Conviction) الذي يقع في منطقة وسطى بين السابقين، فالاقتناع أن يكون المرء قد أقنع نفسه بوساطة أفكاره الخاصة، قبل أن يعمد إلى إقناع غيره، فالاقتناع وحده القمين بأن يحقق الحرية الإنسانية من حيث هي ممارسة لاختيار عاقل، فأن تكون الحرية تسليما إلزاميا بنظام طبيعي معطى سلفا معناه انعدام كل إمكان للاختيار، فإذا لم تكن ممارسة الحرية مبنية على العقل فإن كل اختيار يكون ضربا من الخور، ويستحيل إلى حكم اعتباطي يسبح في فراغ فكري[٥١].

وبهذه الرؤية يخرج الحجاج من سلطة المطلق في الجدل والخطابة الأرسطيتين إلى فضاء التقريب والاحتمالية، ليعانق كل أشكال التخاطب الإنساني، إنه يحضر في جميع مستويات القول، من نقاشات عامة أو عائلية، كيفما كان المستمع الذي تتوجه إليه الأقوال، أو أشكال توجهها[٥٢]، وعلى صعيد أسلوب التحاجج يقرر **بريلمان وتيتكا** التزام الحجاج بعدم اللجوء إلى القوة في تغيير آراء المحاججين، بل إنه يقوم على

---

(٤٩) L empire Rhetorique, p29-62

(٥٠) Traite de l'argumentation : la nouvelle rhétorique, p 5-59-63

وانظر أيضا: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص٢٠

(٥١) Quand nous sommes convaincus, nous ne sommes vaincus que par nous-même par nos propres idées, quand nous sommes persuadés, nous le sommes toujours par autrui, Traité… P 54.

وانظر أيضا: صولة، عبد الله، **الحجاج، أطره ومنطلقاته**، ص٣٠١.

(٥٢) Chaim Prelman et Olbrechts Tyteca, Traite de l argumentation, p1-4-10

الاعتراف بالآخر وبأفكاره، ومحاولة تعديلها عن طريق مخاطبة قدراته العقلية، وحريته في الحكم، لذلك أي قرارات أو نتائج تظهر على الآخر لم تأت بهذه الطريقة تعد نوعا من العنف الفكري.

وعلى صعيد تمعين العلاقة بين الحجاج (la nouvelle rhétorique)،والخطابة من ناحية والجدل من ناحية أخرى يكاد **بريلمان** و**تيتكا** يتقيدان بتلك العلاقة الكلاسيكية التي أقامها أرسطو بين الجدل[٥٣] والخطابة، فإذا كان الجدل لعبة نظرية،فإن الخطابة ليست كذلك، إنها وسيلة عمل اجتماعي تستدعي المسلمات أو بديهيات العقول لإلزام الخصم، فيظهر الأثر الذهني في المتلقي، وتسليمه بما يقدم له أو إذعانه إذعانا نظريا مجردا مجاله العقل، مشابهة لأثر الجدل، وأما الخطابة فتظهر من خلال تأكيدها على فكرة توجيه العمل بالتهيئة للقيام به أو الإمساك عنه[٥٤].

هذا وإن الغاية من التقريب بين الحجاج والخطابة أن نلح على أنه لا حجاج بدون وجود جمهور يرمي الخطاب إلى جعله يقتنع، ويصادق على ما يعرض عليه. لقد حدد بريلمان الحجاج من خلال ملامح خمسة هي: ١- توجهه إلى مستمع، ٢- تعبيره بلغة طبيعية، ٣- احتماليته، ٤- اعتماده الضرورة المنطقية لتقدمه ونموه ٥- نتائجه غير ملزمة[٥٥].

---

(٥٣) الجدل هو القدرة على الخصام، والحجة فيه، وهي منازعة القول لإقناع الغير بالرأي الخاص، أما اصطلاحا فهو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه إلزام الخصم، وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان، ودفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة الحقيقية، انظر الجرجاني (الشريف)، **التعريفات**، مكتبة لبنان، بيروت، سنة ١٩٨٥، ص ٧٨.

(٥٤) Introduction de la rhétorique. O P . cit. P 49.

(٥٥) انظر: أوليفي روبول، **هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي**، ص٧٧.

كما تعد أعمال **أزوالد دي كرو وجون- كلود أوسكومبر** نموذجا لاتجاه جديد في الدراسات اللسانية الحديثة في توجهها نحو التفكير التداولي، وتحليل اللغة العادية، إذ تقوم أنظارهما على ضرورة التمييز بين الحجاج بوصفه خطابا والاستدلال بوصفه منطقا، ينتميان إلى عالمين مختلفين(٥٦) إذ نلاحظ أن تسلسل الملفوظات في الاستدلال لا يرجع إلى تسلسل الملفوظات نفسها، وإنما إلى القضايا المنطقية المتضمنة فيها(٥٧)، ورفض التصور القائم على فصل الدلالة التي تبحث في المعنى، والتداولية التي تعنى باستعمال ذلك في المقام، فهما يعتقدان أن الأمر كله منوط ببنية اللغة، ففيها الجزء التداولي الذي يكون مدمجا في الدلالة(٥٨)، وبالتالي سيكون موضوع البحث الحجاجي هو *بيان الدلالة التداولية المسجلة في أبنية اللغة، وتوضيح شروط استعمالها الممكن، مما سيكون أداة فاعلة لبناء النص الحجاجي*(٥٩)، وفي هذا الإطار يندرج عنصر الحجاج، فهو موجود في بنية اللغة ذاتها من حيث هي علامات لا تدل على قيم مفهومية فقط،

---

(٥٦) O.Ducrot ,Les echelles argumentatives ed Minuit, Paris, 1980, p10

(٥٧) ibid, p10

(٥٨) يعتقد **دي كرو** و **أنسكومبر** أن في الأقوال بعض الخصائص التي تحدد قيمتها التداولية بغضّ النظر عن محتواها الخبري، لذلك يجب أن يدمج المظهر التداولي في الدلالة، **فالتداولية المدمجة** في الدلالة هي: البحث في الجوانب التداولية المسجلة في بنية اللغة، ودلالة الجملة لاستخراج الأشكال اللغوية ذات القيمة التداولية لضبط شروط استعمالها. انظر: شكري، مبخوت، **نظرية الحجاج في اللغة، ضمن أهم نظريات الحجاج**، ص ٣٥٤.

(٥٩) المرجع نفسه، ص ٣٣٥، وانظر: ليونيل بلينجر، **"الآليات الحجاجية للتواصل"**، ترجمة عبدالرفيق بوركي، مجلة علامات، عدد٢١، المغرب، سنة ٢٠٠٤، ص ٤١. وانظر: Anscombre, Ducrot, Largumentation dans la langue, p163.

وإنما تنقل قيما تأثيرية وجمالية وتخييلية وسجالية عن الفرد الذي يوظفها[٦٠]، في سياق إنجازها التحويلي للواقع المعين[٦١]، وما دام الحجاج بهذا الشكل فعلا لغويا، فمن الضروري البحث في بنية اللغة ذاتها عن الآثار التي يخلقها فيها هذا الاستخدام الحجاجي[٦٢].

وهذا يعني أيضا أن الحجاج إنجاز لعملين هما؛ عمل التصريح بالحجة من ناحية، وعمل الاستنتاج من ناحية أخرى، سواء كانت النتيجة مصرحا بها أم مضمرة، فالحجاج -عندهما- خاصية لغوية دلالية، وليس مجرد ظاهرة مرتبطة بالاستعمال في المقام، وبالتالي سيتحقق الحجاج من خلال تتابع ق١ و ق٢ تتابعا صريحا أو ضمنيا، أي الحجة والنتيجة لغويا؛ أي من بنية هذه الأقوال المتسلسلة[٦٣]، وليس من مضمونها الإخباري، فمن أجل أن يكون ق١ حجة تفضي إلى ق٢، لا يكفي في ق١ من الحجج -في مستوى المضمون- ما يفضي إلى التسليم بـ: ق٢، إذ ينبغي أن تشتمل البنية اللغوية في ق١ على بعض الشروط التي من شأنها أن تؤهل ق١ لكي يمثل في خطاب

---

(٦٠) خوسيه ايفانوفيكوس، **نظرية اللغة الأدبية**، ص ٣٢، وانظر طه عبد الرحمن، **التكوثر العقلي**، ص٢٦٠،وانظر في علاقة اللغة بالحجاج : عبد السلام عشير، **إشكالات التواصل والحجاج، مقاربة تداولية معرفية**، مخطوط دكتوراه دولة، المغرب، سنة ١٩٩٩، ص ٢٢٩ وما بعدها.

(٦١) انظر: حسان الباهي، **اللغة والمنطق، بحث في المفارقات**، المركز الثقافي العربي، ط١، الدار البيضاء، سنة ٢٠٠٠، ص١٢٠-١٢١.

(٦٢) انظر: رشيد الراضي، **"الحجاجيات اللسانية عند انسكومبر وديكرو"**، مجلة عالم الفكر، مجلد ٣٤، عدد١، الكويت، سنة ٢٠٠٥، ص ٢٢٥.

(٦٣) انظر: أبو بكر العزاوي، **الحجاج واللغة**، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، سنة ٢٠٠٩، ص٢١

ما حجة تفضي إلى ق٢[٦٤]، فترابط الأقوال لا يستند إلى قواعد الاستدلال المنطقي، إنما هو ترابـط حجاجي مسجل في أبينة اللغة بصفته علاقات توجه القـول وجهة دون أخرى وتفرض ربطه بقول دون آخر.

فموضوع الحجاج في اللغة هـو بيان ما يتضمنه القول من قـوة حجاجية تمثل مكونا أساسيا لا ينفصل عن معناه، تجعل المتكلم في اللحظة التي يتكلم فيها يوجه قوله وجهة ما[٦٥]، مما يحين الحجاج للوظيفة التوجيهية (L'orientation) في إطار اللغة، نظاما ووظيفة، ذلك إن نظرية الحجاج عند ديكرو وزميله معنية تبيين الوظيفة الحجاجية التي تؤديها اللغة، مؤشرا عليها من بنية الملفوظات نفسها، من خلال استكشاف البنية الداخلية للخطاب، ومكوناته اللسانية المحققه لهذا الغرض[٦٦]، على أن ينبني الخطاب على سلمية من الحجج المتسلسلة، والمتفاوتة من حيث قوتها الحجاجية[٦٧].

ولعل من أهم الإشكالات المعرفية المتصلة بتموقع الخطاب الحجاجي ضمن الأنساق البلاغية العلاقة الكائـنة بين الحجاج بوصفه عملا قوليا منتجا والبـلاغة بوصفها صفة قولية، وإطارا نظريا وعلميا في الآن نفسه، فلقد كانت البلاغة علما شاملا يتناول مجموعة الظواهر التي تطمح إلى دراستها حاليا التداوليات مثل ظواهر تكوين الخطيب والمستقبل والسامع، غير إنها أخذت في العصور اللاحقة تتطور نحو الفصاحة، حتى اختصت كليا بها، وحتى داخل الفصاحة أضحت بعض تلك الظواهر هامشية، مما جعلها تستقر حاليا في مجرد كونها دراسة في المجازات بشكل خاص[٦٨].

---

(٦٤) l'argumentation dans la langue, p11، وانظر أيضا :عبد الله صولة، **الحجاج في القرآن**، ص٣٧.

(٦٥) انظر: شكري مبخوت، **الحجاج في اللغة**، ص٣٥٢ و٣٧٥.

(٦٦) انظر: أبو بكر العزاوي، **الحجاج واللغة**، ص ٧.

(٦٧) Les Echelles Argumentatives, p12-18

(٦٨) خوسيه إيفانوفيكس، **نظرية الأنواع الأدبية**، ص ٢٢-٢٣.

تميز الاتجاه البنيوي الذي تبلورت معالمه في الستينات من القرن العشرين في كل من ألمانيا وفرنسا باستحواذ المقاربة الشكلانية على تصوراته النظرية، ومخرجاته الإجرائية بالإضافة إلى دعوته المستمرة إلى إحداث القطيعة المعرفية مع التراث البلاغي الكلاسيكي، والرغبة الشديدة في تحويل البلاغة إلى علم موضوعي قائم بذاته يتمتع بالصرامة العلمية والحياد.

وعلى ذات المنهج الذي سلكه اللّسانيون في نقد التراث اللغوي الأوربي المتراكم عبر القرون، نزع أنصار البلاغة البنيوية إلى قراءة الموروث البلاغي قراءة بنيوية تركز على وظيفة العلامة من حيث هي شكل في الخطاب المنجز[٦٩] تحقق الغرض من التواصل بفضل العلاقات الصوتية والتركيبية والدلالية التي تجمعها بمثيلتها داخل النظام الكلي للبنية النصية. وفي هذا السياق تنزلت عناية أنصار البلاغة البنيوية بوصف وتحليل الأنساق اللسانية ذات الوظيفة الانحرافية أو التحويلية في مستوى النصوص المكتوبة بخاصة[٧٠].

لذا ركز البنويون على وصف أنساق نصية مهمة مثل؛ الحذف والتكرار والعطف والإضافة والتقديم والتأخير وأنواع الصيغ الصرفية، وكيفية توزيعها في التركيب النصي، وإمكانات استبدالها على المحور العمودي (Axe Paradygmatique)[٧١].

---

(٦٩) انظر: صلاح فضل، **بلاغة الخطاب وعلم النص**، ص١٣٤.

(٧٠) المرجع نفسه، ص٨٧.

(٧١) يمثل هذا المحور علاقة الاختيار التي تمكن من المفاضلة بين عدد لا نهائي من الوحدات للتعبير عن المعاني المختلفة، بناء على علاقة الاستدعاء، ويعمل هذا المحور متضامنا مع المحور التركيبي الأفقي، لإنشاء النظم، والتأليف بين تلك الوحدات المختارة من لدن صاحب النص.

ولعلّ هذا التوجه يمكن أن يندرج في سياق الأسلوبية، فقد عنيت الأسلوبية بشتى مقارباتها التعبيرية والذاتية والبنوية والوظيفية والنصية بدراسة وتحليل هذه الأنساق ضمن مستويات الخطاب المختلفة[٧٢]، ومهيمنات الأسلوب التي يوجهها الكاتب لتحقيق مآربه الشخصية، والتي يكون من بينها عادة التأثير الجمالي في المتلقي، واستمالته عاطفيا تمهيدا لإقناعه ومحاججته.

وأيّا كان نوع المباشرة فإن مركز الضبط في البلاغة البنيوية هو البنية (structure) ليس من حيث كونها مجرد شكل ظاهري، يتزين به الخطاب، بل بوصفها مجموعة ممارسات ثقافية واجتماعية وأدبية ولسانية يكشف عنها التحليل البنيوي عن طريق الحفر في مستوياتها الظاهرة والعميقة[٧٣]. وفي سياق إعادة قراءة التراث البلاغي القديم تبزغ في سماء الفكر اللساني النقدي الغربي أطروحات عديدة، لعل أهمها أطروحة "**رولان بارت**" في كتابه "*قراءة جديدة في البلاغة القديمة*"، وتتلخص رؤيته في منظومة من الأفكار نوردها موجزة فيما يأتي[٧٤]:

١- الوجود الحقيقي للنص يكون بانفصاله النهائي عن الكاتب، واتصاله بالقراءة والقارئ. ولعل هذه الفكرة هي نتاج لنظرية التلقي والقراءة في الفكر النقدي الحديث.

---

(٧٢) عن اتجاهات الأسلوبية يمكن الرجوع إلى محي الدين محسب، **الأسلوبيات الأدبية، من لغة النص إلى مغزى الخطاب، رؤية منهجية وتطبيقية في النص الشعري العربي**، من إصدارات كرسي د. عبد العزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها، جامعة الملك سعود، مطبعة سفير، الرياض سنة ٢٠١١، ص ١٥-٣٣ .

(٧٣) رامان سالدن، **النظرية الأدبية المعاصرة**، ص١٣٥ .

(٧٤) تناولت دراسات عربية عديدة تصورات بارت اللسانية النقدية والبلاغية.

٢- متعة القراءة محصلة انفتاح النص على القراءات العديدة.

٣- تقوم البلاغة الجديدة على منجزات البلاغة القديمة، والتي لا تخلو من جدة وطرافة من حيث الموضوع والوسائل والغايات.

٤- البلاغة من حيث هي خطاب تاريخي إمبراطورية أكثر اتساعا وصلابة من أية إمبراطورية سياسية(٧٥).

٥- ضرورة الربط بين بلاغة الخطابة وبلاغة الشعر في منوال بلاغي نقدي واحد، يصف ويحلل شعرية الأدب بعامة، ويكون مدخلا لدراسة الحجاج السردي بخاصة(٧٦). كما يعرض "بارت" لمنظومة البلاغة من حيث كونها شبكة من الأعمال تنجز في السياق التواصلي لتحقيق الإقناع، مبرزا قيامها على تقنيات متعددة تتصل باختيار الموضوع، وترتيب عناصره واستحضار حججه، ومن ثم إخضاعها لسلمية معينة تخدم الهدف الحجاجي(٧٧).

أما اللغة فوظيفتها إمداد النسق بوسائل الاتّساق والانسجام التي تضمن دلاليته، ومقبوليته من الناحية التركيبية والدلالية؛ كما يتعضد العمل القولي بالعمل الحركي، فلا تخفى أهمية الحركة الجسمية في الخطاب الشفوي في توجيه الخطاب والاستدلال عليه -مثلا-، وقد تقوم العلامات الرقمية وقواعد الضبط الكتابي بالوظيفة نفسها، إذ يتحول البياض مثلا في التصور السيميائي إلى علامة مرئية دالة، كما تتشكل الحجج المتصلة بالمتكلم، وتنظم بلاغيا لتحقيق الهدف الحجاجي -على رأي بارت- من خلال

---

(٧٥) بارت، **قراءة جديدة للبلاغة القديمة**، ترجمة عمر أوسمان، دار إفريقيا الشرق، ط١، المغرب ١٩٩٤، ص١١ و ما بعدها.

(٧٦) المرجع نفسه، ص٢٠.

(٧٧) المرجع نفسه، ص٤٩-٥٠.

الإشاعات والشهادات والاعترافات والوثائق والأيمان وغيرها من الأدلة الخارجية التي تخترق البنية النصية لتؤسس العامل الواقعي للخطابات[٧٨]، أو ما يمكن عده سياقا خارجيا. وبالإضافة إلى هذه الحجج يقوم المحاجج البلاغي باستدعاء الأمثلة والأقيسة التي تستخلص بالاستقراء والاستنباط لتدعيم رؤيته، وترسيخ فكرته في النص الذي يتوجه به إلى ذاتية المتلقي وأفقه التوقعي. هذا وأفضى التوظيف البارتي للمنجز البلاغي القديم إلى تقديم هذا التصور المشخص للصيرورة التاريخية على نحو يبينه المخطط التالي:

كما وقف **بارت** مطولا مع بلاغة الصورة باعتبارها العلامة الدالة على النسق الثقافي السائد، والأكثر شهرة وتداولا في الحياة اليومية، فبها تختزل تعابير ودلالات اللغة المنطوقة، وتجسدها؛ فتحول الدلالة إلى عالم مرئي يمكن إدراك مكوناته وآثاره النفسية والاجتماعية، وقد حرص على تأكيد العلاقة الجدلية التي تربط الصورة من حيث هي نص بليغ بالانزياح والمفاجأة[٧٩]، إذ بقدر ما تمارس الصورة انزياحها في علاقتها بالمرجع تحدث المفاجأة التي تخرق التوقع، مخلخلة نظام المحاججة في عرف المحاجج أو المتلقي للصورة في الفضاء الاتصالي الإشهاري بخاصة، أين تندمج المكونات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في بوتقة اللغة، منتجة منظومة الصور التي يمكن قراءتها وتأويلها بأفق متجدد ومتغير نظرا لاختلاف المرجعية القرائية، والروافد التأويلية.

---

(٧٨) بارت، **قراءة جديدة للبلاغة القديمة**، ص٥١ و ٥٢.

(٧٩) بارت، **قراءة جديدة للبلاغة القديمة**، ص٩١ و ٩٢.

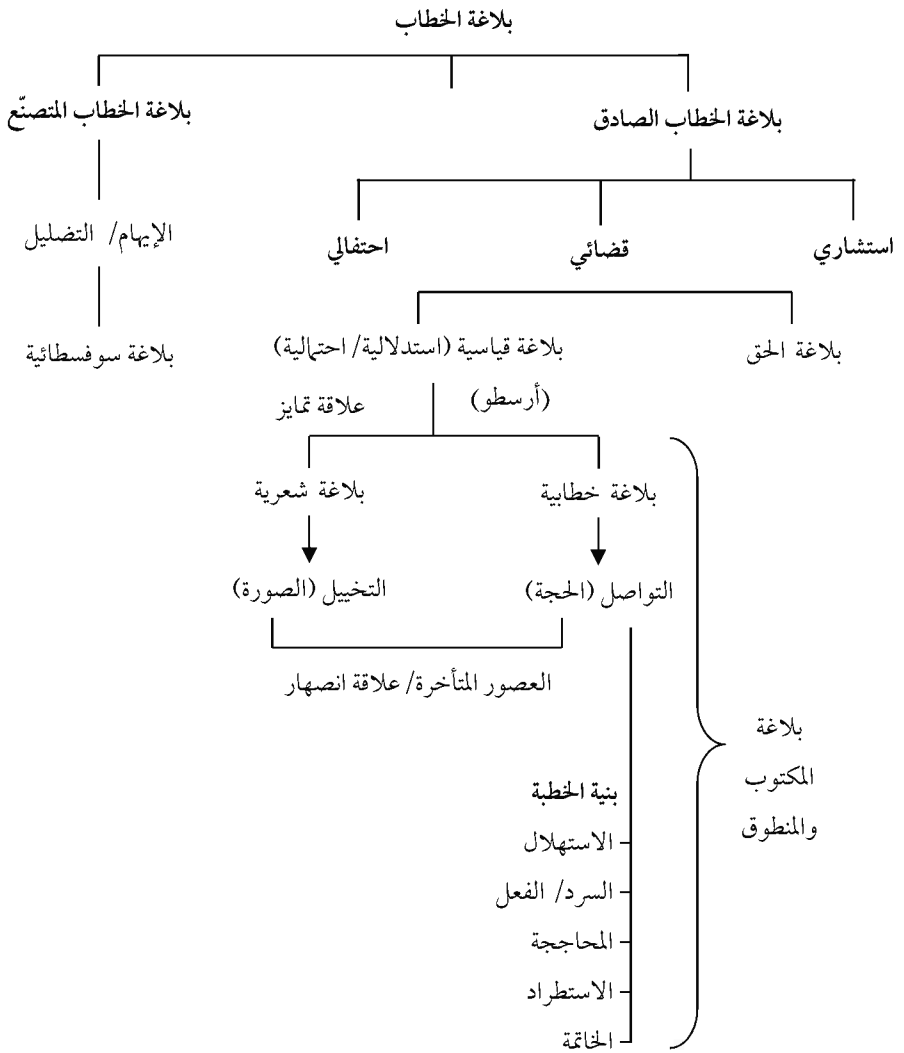

إن عالم الصورة الإيقوني لا ينفك قطعا عن العالم اللساني[٨٠]، وإن كان هذا الأخير يقيم علاقته اللسانية بين الدال والمدلول على أساس اعتباطي بخلاف الصورة فهي خاضعة

(٨٠) المرجع السابق، ص٩٦-٩٧.

لنزعة تبريرية ضرورية تجمل الصورة / الأيقون بالدلالة ومكوناتها المرئية. ويخلص "بارت" إلى أن بلاغة الصورة تعني ما نوحي به، وذلك في حد ذاته خاضع للاعتبارات الفيزيائية للرؤية والصوت معا. هذا ويمثل التصور التالي خلاصة رؤية بارت في تمييزه بين البلاغة في مستوى الصورة والبلاغة في مستوى اللغة الطبيعية[٨١]، وفق ما يبرزه النموذج التالي:

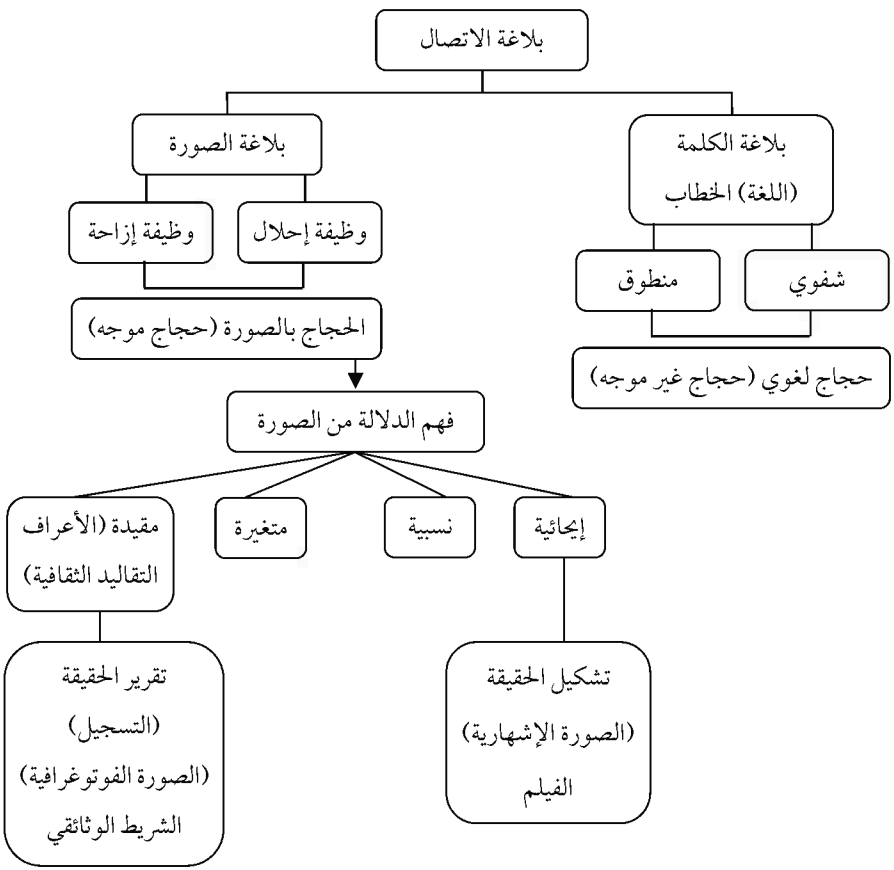

(٨١) بارت، **قراءة جديدة للبلاغة القديمة**، ص٩٧.

أما **بول ريكور** فتتنزل عنايته بالحجاج البلاغي في سياق السرد من زاوية تأويلية صرفة، تمتح تصوراتها من تقاطعات علمية إنسانية مختلفة، ذلك إن السرد -عنده- ظاهرة بلاغية وجودية مستوعبة للتجربة الإنسانية كلها[٨٢]،و الناظر في بعض مؤلفاته التي نقل عـدد منها إلى العربية، تنكشف له بعض الأمـور المشكلة للإطـار المعـرفي والمفهومي الذي ينفذ منه الباحث إلى الظاهرة البلاغية الحجاجية، لعل أهمها[٨٣]:

١- لا نهائية التأويل وتعدد القراءات (التأويلية المنفتحة).

٢- ارتباط السلطة بالتأويل.

٣- وعي القارئ بالنص، هو وعي بالذات المحاججة، واستحضار للنصوص الخارجية التي يتناصّ معها النص المعين.

٤- الوعي بالذات محصلة للتأويل الظاهراتي من خلال الوسيط اللغوي.

٥- العناية بدراسة الأوجه البلاغية، مثل الاستعارة من حيث هي موجه أسلوبي، وأدوات حجاجية أساسية في النصوص الإبداعية.

٦- الربط بين البلاغة والانزياح (Ecart)؛ فالبلاغة انزياحات قابلة للتعديل المستمر سياقيا وفق قاعدتي الخرق والابتكار.

٧- الاستعارة داعم فكري تأملي للحجاج والتأويل في الآن نفسه.

٨- النص السردي واسطة العقد بين الإنسان وذاته والإنسان والآخر والإنسان والعالم، إنه الإطار الذي تترابط فيه المرجعية بالاتصالية بالفهم الذاتي لتحقيق الحجاج

---

(٨٢) Paul Ricoeur, **conflits des interprétation, essais d'herméneutique**, ed seuil, Paris 1964, p7.

(٨٣) انظر: بول ريكور، **صراع التأويلات**، ترجمة منذر عياشي، ص١٠، وانظر: **من النص إلى الفعل**، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، بيروت، ١٩٨٩، ص١٧٠ وما بعدها و ص٣٠ وما بعدها.

البلاغي[٨٤]، ضمن علاقة القارئ بالنص في مستوى الدلالة والتأويل. لقد صدرت هذه الأفكار المفصلية في فلسفة بول ريكور عن موقف عام من التأويل تغذيه المرجعية البلاغية بالدرجة الأولى. ولا نغادر المدرسة البلجيكية في الحجاج قبل أن نقف مجملا عند أهم تصورات رائدها الثاني **"ميشال ماير"** (Michel Meyer) الذي وضع يده برهافة حس على الطبيعة التساؤلية للحجاج البلاغي ضمن دائرتي الأدب والفلسفة خالصا إلى التصور الآتي:

١- السؤال والجواب هما ركيزتا الحجاج البلاغي.

٢- مبدأ التساؤل مبدأ جذري لفهم وجودية الإنسان وتصوره للعالم.

٣- عملية التفكير ليست سوى عملية مساءلة واستعمال الكلام الحامل لقدرة الفكر على المساءلة يعدّ فعل تفكير[٨٥].

٤- كل سؤال هو نداء إلى اتخاذ قرار ما في الحياة.

٥- تأكيد البعد اللغوي العقلي للحجاج ضمن بنية المجاورة.

٦- البلاغة هي الحجاج[٨٦].

٧- المجاز طريقة للتعبير عن الأهواء والعواطف وأداة لصناعة المعنى.

٨- تصاغ الأسئلة صياغة جيدة بناء على القدرات الخاصة بالسائل المحاجج، ومعرفته بإطار المحاجَج (الموجه إليه السؤال).

---

(٨٤) انظر: بول ريكور، **الوجود والزمان والسرد، فلسفة بول ريكور**، ترجمة سعيد الغانمي، ص٤٧-٤٨.

(٨٥) M.Meyer, de la problématologie, Bruxelles, mardaga,1986, p57-186-203.

(٨٦) M.Meyer, logique, langage et Argumentation, op, cit, p124-136-140.

٩- تقوم نظرية ماير على مقومات ثلاثة هي التداولية ونظرية التأويل والبلاغة، في ضوء العناية بظروف إنتاج الخطاب، والبحث في العلاقة التساؤلية (سؤال/ جواب)، والربط بين الحجاج والبلاغة إلى درجة التماهي والتوحد في نسق واحد يمكن وسمه بـ: "بلاغة الفلسفة" (Rhétorique de la Philosophie)(٨٧).

وبالجملة يمكن القول بأن هذا العالم الذي جمع بين الإطارين البلاغي والفلسفي في دائرة واحدة هي دائرة الحجاج بمكوناته التداولية والتأويلية واللغوية، قد مهّد الطريق لظهور التيار التداولي الحجاجي في البلاغة الجديدة، ولعل تأكيده استغراق الحجاج لكل أنواع الخطاب الشفوية والمكتوبة وقيامه على أسس عقلية ولغوية تعني بذل الجهد لإقناع من يتوجه إليه(٨٨).

١٠- تناسب الفعالية الإنتاجية للمحاجج مع المستوى الثقافي للمحاجَج، إذ أن بناء خطيب ناجح يتناسب طردا وعكسا مع مستوى المحاجِجين(٨٩)، من مثل تمحيص المحاجج لحججه وأفكاره وثقته في نفسه، والاستعداد النفسي والمعرفي لمواجهة الخصم، أو الطرف المحاجج، فأول الطريق نحو النجاح تبدأ بمحاججة الذات والانتصار عليها بإقناعها.

١١- يعد المقام قيمة بلاغية شكلية ذات وظيفة أسلوبية تسهم في بناء الانسجام النصي من خلال جدول الأشكال والمحتوى، ناهيك عن كونه إطارا حاليا يؤطر الفعل الحجاجي اجتماعيا وثقافيا وزمانيا ومكانيا(٩٠).

---

(٨٧) انظر: ميشيل مايير، **"اللغة والمنطق والحجاج"**، ترجمة محمد أسيداه، ضمن الحجاج، مفهومه ومجالاته، ٥/ ٤٥.

(٨٨) M.Meyer, logique, langage et argumentation, op, cit, p136.

(٨٩) traité de l'argumentation, p32.

(٩٠) traité de l'argumentation. P112-113.

١٢- إن تداخل البلاغة الحجاجية والبلاغة الأدبية لا يعني إلغاء الفروق بينهما فهما متمايزتان شكلا وموضوعا وغاية[٩١].

١٣- تهدف الوجوه البلاغية كالمجاز والاستعارة إلى إبراز حضور ما وتوكيده أو تلطيفه كما تجلو ما يفهم أو يعد غير مفيد[٩٢]. هذا ويرشح المخطط التالي العلاقة التي تربط السؤال بالجواب في ضوء مقولة التخالف التي تصل أحيانا إلى التضاد الحقيقي[٩٣]:

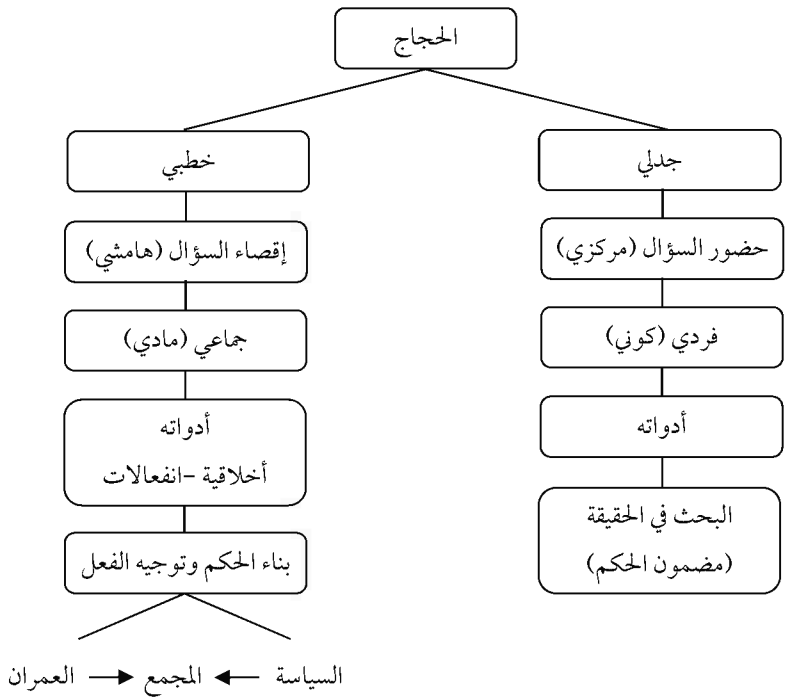

(٩١) صلاح فضل، **بلاغة الخطاب وعلم النص**، ص٧٨.

(٩٢) question de rhétorique, paris, 1993- p106.

(٩٣) أرسطو، **الخطابة**، ص٤٢ وما بعدها و ١٩٥. وانظر محمد الصغير بناني، **البلاغة والعمران**، ص٥٠.

٤ - البلاغة والمدّ اللساني

أحدثت اللسانيات ثـورة معرفية ومنهجية عارمة عـلى صعيد الفكر اللغوي والأدبي والفلسفي المعاصر، وتعدت آثارها الإيجابية حقول المعرفة القديمة لتندمج في حقول علمية مختلفة ذات منزع اجتماعي ونفسي وأنثروبولوجي[٩٤]، وتدخلت إجراءاتها الوصفية والتصنيفية فـي أنساق إنسانية سياسية واقتصادية وإعلامية وأصبح مـن الممكن تحليل الخطابات التي تنجز ضمن هذه الأطر، والوقوف على مكوناتها اللغوية، وخططها الإبلاغية، وأغراضها التأثيرية في حياة الفرد والمجتمع.

ولعلّ من بين الخطابات التي تم وصفها وإبراز قيمتها الاجتماعية والثقافية الخطاب البلاغي المتشكل عبر أزمنة مختلفة من نصوص كلاسيكية شمولية مؤطرة بالإبداع الأدبي الخطابي والشعري، ناهيك عن النصوص الدينية التي تم تداولها في الثقافة الإنسانية، ولمّا كان مثقف اليوم جاهلا إلى حد ما بالنصوص ذات الأصل غير العربي أو الغربي فإن دائرة الوصف البلاغي ستكون مقيدة بإطاري البلاغة الأرسطية عـبر امتداداتها المدرسية إلى عصر البلاغة الجديد وتقاطعها مـع الدرسين الأسلوبي والنقدي الغربي الحديث من ناحية والبلاغة العربية القائمة على منطق البيان اللغوي، الذي يستمد حضوره المادي من المكون الأدبي الشعري والنثري بالإضافة إلى الموروث النقدي الذي يعد خطابا يضطلع بوظيفة الوصف والشرح والتفسير.

لقد تحولت البلاغة في تلاقيها مع اللسانيات إلى علم وصفي تفسيري يستهدف تفكيك النصوص والخطابات المختلفة التي ينتجها الفكر الإنساني الحديث، مجاوزة بذلك صفتها المعيارية التي لازمتها ردحا من الزمن قصد تقويم الملفوظات الأدبية

---

(٩٤) انظر: محمود فهمي حجازي، **"أصول البنيوية في علم اللغة والدراسات الاثنولوجية"**، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد الثالث، عدد١، ص ١٧٧ وما بعدها.

والحكم عليها بالجودة أو الرداءة انطلاقا من مقاييس أسلوبية معينة[٩٥] إلى فضاء تأويلي يستقطر المعنى من رحم الخطابات المتزاحمة، كاشفا عن إيهامات اللغة وتناقضات الدلالة التي يشكلها فعل القول لإقناع الآخرين، كما كان للاتصال الذي حدث بين اللسانيات التداولية ونظرية تحليل الخطاب ونظرية الحديث والدلالة التوليدية والتحليل السيميائي والأسلوبيات والشعريات ونظرية الاتصال واللسانيات الاجتماعية واللسانيات العرفانية والذكاء الاصطناعي ولسانيات النص دور كبير في إرساء معالم النظرية البلاغية الجديدة التي اتخذت من مقولة الحجاج/ الإقناع موضوعا رئيسا لها، تدور حوله عملية مباشرة الخطاب لسانيا وأغراضيا.

بل يمكن الزعم من خلال النظر في نظرية تحليل الخطاب العامة أنها ليست سوى نظرية بلاغية شاملة تتصدى إلى وصف وتحليل تشكلات الخطاب اللغوية والدلالية، وطريقة التشكل وأسلوب توظيفه في التواصل اليومي في ضوء الخصوصيات المقامية، وقد يكون من المفيد نعتها (أي البلاغة) في صورتها الحالية بأنها الأنموذج الأشمل لتداخل الاختصاصات[٩٦]، من حيث مسعاها إلى تحقيق الأهداف التالية:

١- وصف وتحليل الخطابات واستخلاص قواعدها الجمالية الذاتية.

٢- تأويل الخطاب وإنتاج الدلالة النصية.

٣- إبراز الإستراتيجية الإقناعية للخطابات المتداولة في الواقع اللغوي الاجتماعي.

---

(٩٥) انظر: رولان بارت، **قراءة جديدة للبلاغة القديمة**، ترجمة، عمر أوكان، المغرب، إفريقيا الشرق، ط١، ١٩٩٤، ص٧-٨. و انظر هنريش بليت، **البلاغة و الأسلوبية**، ترجمة محمد العمري، المغرب، إفريقيا الشرق، ص٢٢-٢٤.

(٩٦) صلاح فضل، **بلاغة الخطاب وعلم النص**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ١٦٤، سنة ١٩٩٢، ص٢٥١.

٤- دراسة البعد النفعي للخطاب، وطرائق تحقيق ذلك في الحياة العامة من خلال إنتاج نصوص تحث على الاستهلال وتبرز القيمة العينية.

٥- تحليل مقومات الإقناع اللغوية والبصرية في ضوء الانتقال من بلاغة الكلمة إلى بلاغة الصورة والحركة أيضا[٩٧].

أما عن علاقة بلاغة الحجاج باللسانيات فقد تأسست في ضوء رؤية ترى انتماءه للفعل اللغوي بدرجة أولى، يقضي أداه التأثير في السامع، من خلال استثمار مدروس لوسائل اللغة وأدواتها التي تفيد سياقيا الإقناع، مما يعني كونه مفارقا للبرهان والاستدلال المنطقي اللذين يبتغيان إثبات قضية أو دحضها في ضوء مسلمات عقلية معينة، وبعبارة أكثر وضوحا ليس الحجاج اللغوي حجاجا برهانيا منطقيا، إنه عملية لغوية تنتج بفعل القول، يبتغى بها التأثير في المتلقي بأدوات لغوية صرفة[٩٨]، لتتيح عملا استدلاليا طبيعيا قائما على الاحتمالية.

مما يعني انتماءه إلى نظام الخطاب اللساني، وهو نظام يختلف في تكوينه ووظيفته عن نظام المنطق. ويذهب حبيب أعراب في دراسته عن "الحجاج والاستدلال الحجاجي" إلى أن الحجاج ظاهرة لسانية نصية لا يمكن تفسيرها دون إبراز دور المتكلم ومنزلته في عملية التواصل الحواري، ناهيك عن ضرورة العودة إلى المكونات اللغوية ذاتها، وما تقدمه من روابط نصية ذات غائية حجاجية تنظم عمل الحجج، وتوزعها وفق منظومة سلمية معينة تعبر عن إستراتيجية العمل اللغوي الرئيس[٩٩].

---

(٩٧) سعيد بنكراد، وانظر أيضا: حمادي صمود، **من تجليات الخطاب البلاغي**، دار قرطاج، ط١، تونس، ١٩٩٩، ص١٣٤.

(٩٨) انظر: أبو بكر العزاوي، **الحجاج في اللغة**، ص ٥٦.

(٩٩) انظر: حبيب أعراب، **الحجاج و الاستدلال الحجاجي**، ص١٠٤.

وفي هذا السياق يشدد **شكري مبخوت** على أن موضوع الحجاج اللساني قائم على ما يتضمنه المتلفظ به من قوة حجاجية متصلة بالمعنى، لا تنفصم عنه، وتمارس هذه القوة بفضل الأدوات اللغوية الحجاجية التي توجه الملفوظ نحو غاية إقناعية معينة[١٠٠]، مما يعني ضرورة أن يشمل الوصف التداولي للخطاب الحجاجي مستويين من البنية هما: ١- المستوى اللساني النصي، ٢- المستوى البلاغي النصي، بالتركيز على أدوات الربط الحجاجي إحصاء وتصنيفا ووظيفة بالإضافة إلى سائر الأنساق التي لا ينحصر دورها في تحقيق التماسك النصي مثل التكرار والحذف والوصل[١٠١]، بل تتعدى وظيفتها إلى توجيه الدلالة العامة إلى الدلالة الحجاجية، ومن ثم المعنى المقامي الذي تضفر به في سياق تحليل العناصر البلاغية المختلفة في إحالتها المقامية اجتماعيا وسياسيا وثقافيا.

٥- الحجاج وعلم الدلالة

تنخرط النظريات الدلالية المختلفة في سياسة تحليل المعنى الإفرادي أو السياقي ضمن مفهوم البنية اللسانية، عادّة المدلول بوصفه شكلا حاملا للمعنى موضوعها الأساس، بالرغم من التجاذبات الفلسفية والرمزية المختلفة، وقد نشأ في إطار الدلالة البنوية القول الذي يعدّ المعنى المعبر عنه باللفظ تصورا للواقع الموصوف، الذي تخبر

---

(١٠٠) انظر: شكري مبخوت، **نظرية الحجاج في اللغة**، ص٣٥٢ ضمن: الحجاج في التقاليد الغربية، وانظر تبعا لذلك Oswald Ducrot, les échelles argumentatives, ed de Minuit, Paris, 1989, p9-18-30.

(١٠١) يميز **ديكرو** بين الروابط الحجاجية التي تمثل أدوات الاتساق مثلا في العربية كالواو والفاء، لكن وإذا، وبين العوامل الحجاجية المؤسسة للقول نفسه مثل: النفي والحصر والظروف، نظر شكري مبخوت، **نظرية الحجاج في اللغة**، ص٣٧٧.

عنه العلامة، فيصدقه الواقع المادي أو يكذبه، فنظام الدلالة اللسانية نظام قائم على الفكرة التواصلية بالدرجة الأولى، تواصل بالحواس مع العالم الحسي، وتواصل لغوي مع أبناء الجنس البشري ضمن دائرة التبليغ اللغوي، وفي الحالين معا لا يتم التعرض للبعد الفعلي للدلالة، من حيث كونها عملا اجتماعيا منجزا بالتلفظ في سياق التخاطب أو الكلام ينافح عن رؤية أو مبدأ معين.

فالتحاجج أو الحجاج فعالية إنسانية تعبر عن روح الإنسان المخاطب للآخرين، وقيمة لغوية ثانوية تتقدمها القيمة الإبلاغية للفظة أو الجملة[١٠٢]. أما فلاسفة أكسفورد فقد ركزوا على البعد الإنجازي للقول، فمعنى الملفوظ ليس بالضرورة ما نقصده في سياق التخاطب، ومن ثم يمكن التمييز بين المعنى الحرفي أو السطحي للعبارة المنطوقة، أو ما يمكن أن يعد محتوى قضويا في القضية أو شحنة إعلامية في المعلومة المعروضة، والتي يفهم معناها من دلالة المفردات في صياغتها الصرفية والنحوية التي تظهر بها.

كما يتم التحقق من صدقيتها بمطابقتها للعالم أو مخالفتها له، بينما يشير المعنى الغرضي، أو الفعل المتضمن في القول إلى قصد المخاطب، وغرض الخطاب، ممّا يمكن التعرف على نجاعته من خلال توفيقه أو عدم توفيقه بالنظر إلى ضوابط التداول اللغوي الاجتماعي، وهذا المعنى هو الذي تعده نظرية الفعل الكلامي فعلا له آثاره النفسية والاجتماعية، تختلف قوته باختلاف شروط تكوينه، وفي هذا الإطار يمكن

---

(١٠٢) يمتح هذا التصور الوصفي للمعنى من جملة النظريات الدلالية البنوية المتأثرة بأعمال سوسير، بالإضافة إلى منهج اللسانيات التوليدية في بعدها الديكارتي العقلاني، ولعل أهم من يمثل هذه النزعة في علم الدلالة الوصفية: **دجيش (P.TGeach) وألفريد تارسكي (A.Tarski)**، انظر المرجع نفسه، ص٦٧.

تنزل العمل الحجاجي بوصفه فعلا متضمنا في قول قد يكون معناه مفيدا للوصف أو الإخبار أو العرض أو الحوار أو الطلب أو الإرشاد؛ بينما يوجه لإنشاء الحجاج، وحمل المستمع على الإقتناع، بل يمكن تمعين أقوال حجاجية تختلف في قيمتها الإنجازية عن محتواها الإخباري إلى حد التعارض[١٠٣].

وفي هـذا الإطـار أيضا يمكن التّمييز بين المعنى الإخباري والمعنى الوصفي والمعنى الطلبي والمعنى الحجاجي الذي يعد بؤرة البحث في نظرية الحجاج[١٠٤] بعد أن صحح **أوستن** نظرة المتقدمين الذين جعلوا الأقوال اللغوية لوصف العالم والإخبار عن تفاصيله، واسما هذه الرؤية بكونها مغالطة وصفية[١٠٥]، انطلاقا من أن المتكلم ينشئ بتلك الأقوال أعمالا إنجازية مختلفة تتجاوز مجـرد الوصف إلى إصدار الحكم والإعلان والطلب من أمر ونهي وحث ودعوة والتماس، والتحذير والالتزام والتفسير والإثبات والنفي والتزكية، وغير ذلك من أفعال التي تبيّنَ لاحقا أنها تنصهر في فعل كلي جامع هو الفعل الحجاجي مصرحا به أو مضمرا بحسب مقتضيات الخطاب، وبنيته اللسانية[١٠٦]. كما يتنزل بحث الحجاج من الناحية الدلالية في سياق ما يعرف بالحجاجية الضعيفة[١٠٧] التي تقلل من دور المؤشرات الحجاجية في تحديد الدلالة العامة للملفوظ.

---

(١٠٣) انظر أمثلة تفصيلية لهذا التعارض في بحث: أبو بكر العزاوي، **الحجاج في اللغة**، ص٧٥.

(١٠٤) يشير **دي كرو** هنا إلى ضرورة عدم الخلط بين المعنى الحجاجي بوصفه قيمة قولية، والمعنى الحرفي أو الإخباري الذي تشيده العلاقات المعجمية والنحوية في التركيب، انظر: Les echelles argumentative, p7-10.

(١٠٥) Francois Recanati,naissance de la Pragmatique ,in Quand dire c est faire, p185

(١٠٤) أبو بكر العزاوي، **الحجاج في اللغة**، ص٦٨.

(١٠٧) يمثل هـذا الاتجـاه **جيل فوكونيي** (G.Fauconnier) **وهنين نولكه** (H.Nolke) و**ربيير مارتان** (R.Martin)، انظر المرجع نفسه، ص ٦٨.

٦- الحجاج في إطار التداوليات

توثقت عرى الترابط المفهومي والغائي بين التداوليات بوصفها مجالا وصفيا وتفسيريا للأعمال اللغوية التي ينجزها مستخدموا اللغة في مقامات التواصل والتفاعل الاجتماعي المختلفة معتمدين على ضوابط حوارية معينة، تحقق للخطاب مقصديته[١٠٨]، ونظرية الحجاج[١٠٩] من جهة ثانية بوصفها إطارا بحثيا في أدوات التعبير عن الأفكار، والحث على التجاوب معها من طرف الآخرين، بالإضافة إلى الرغبة في استهوائهم واستمالتهم بشتى الطرق إلى وجهة النظر المطروحة بواسطة القول نفسه، أو الأفعال ذات الأثر المادي في علاقة التحاور البينية.

وضمن هذا البعد التأثيري تتنزل العناية بالحجاج باعتباره غاية للإبلاغ، ومنتهى للتواصل، فالكلام لا يكون إلا بين اثنين، ولو كان كلام المرء مع نفسه، ولا اثنين إلا عرض ومعترض، ولا عارض إلا بدليل، ولا معترض إلا لطلب الصواب[١١٠]، ويكتشف المتحاورون إزاء هذا التحاور عبر تأويلهم لنظام العلامة المشفرة في التبليغ مقاصد بعضهم التي يبتغون تحقيقها مستنجدين بتقنيات القول البليغ في أغلب الأحيان عن طريق المثل والشاهد والقياس المضمر والافتراضات

---

(١٠٨) طه عبد الرحمن، **"اللسانيات والمنطق والفلسفة"**، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، عدد٥، سنة ١٩٨٨، ص ١٢١.

(١٠٩) يعد العمل الحجاجي عملا لغويا مركبا، تعنى بدراسته نظرية الأعمال اللغوية، بالإضافة إلى عنايتها بالأعمال اللغوية البسيطة التي عرضها أوستين وسيريل، انظر تفصيل ذلك في: فان إيميرين وخروتندورست، **"الحجاج فعل لغوي مركب"**، ترجمة ياسين ساوير المنصوري، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، تنسيق حافيظ علوي، ٥/ ١٩٧.

(١١٠) طه عبد الرحمن، **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، ص ٩٣.

اللغوية المختلفة[١١١]، واستخدام المجاز والاستعارة، لقد قرر **ليتش** (Leitch,v) أن البلاغة تداولية في صميمها، فهي ممارسة للاتصال بين المتكلمين تسمح بحل مشكلات الدلالة والفهم من خلال وسائل تأثيرية معينة لغاية الإقناع[١١٢].

إن المنظور التداولي للخطاب يسعى دوما إلى الإجابة عن أسئلة محورية تجسد علاقة الناص بالنص من جهة، وعلاقتهما معا بالمقام والمتلقي من جهة ثانية، ولعل أهمّ هذه الأسئلة: ١- من يتكلم، ٢- إلى من يتكلم، ٣- ماذا يقول؟ ٤- كيف يقول؟ ٥- ماذا يقصد؟ ٦- هل هناك فرق بين القول والقصد الذي يريد؟ ٧- أين يقول؟ ٨- متى يقول؟[١١٣].

وهذه الأسئلة متصلة اتصالا وثيقا بتداولية العمل اللغوي، وقيمته الحجاجية في التواصل الاجتماعي؛ فالربط بين التداوليات والبلاغة الحجاجية يتنزل في سياق تأكيد إمكانية تحول البلاغة بعامة والبلاغة القديمة بخاصة إلى نظرية نصية تداولية تحمل على عاتقها مسؤولية تحليل وظائف المقام التخاطبي الذي يتحكم بدوره في بنية النصوص، ووظيفتها الاجتماعية التداولية[١١٤].

---

(١١١) J.Moeschler, Argumentation et Comversation ,ed Hatieu,Paris, 1985, p24-23

(١١٢) صلاح فضل، **بلاغة الخطاب و علم النص**، ص٩٧-٩٨. وانظر ميشيل مايير، **"اللغة والمنطق والحجاج"**، ترجمة محمد أسيداه، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ٥/ ٤٥.

(١١٣) براون ويول، **تحليل الخطاب**، ترجمة منير التريكي ومحمد لطفي الزليطني، منشورات جامعة الملك سعود، ص ٣٥.

(١١٤) هنريش بليت، **البلاغة والأسلوبية**، تر محمد العمري، إفريقيا الشرق، ط١، المغرب، ١٩٩٩، ص ٦٦. وانظر عن تفاعل هذه الأطراف؛ البلاغة والتداوليات ونظرية الحجاج، طه عبد الرحمن، **اللسان والميزان**، ١٠٢ وما بعدها.

وليس أدل على ذلك من استحواذ الانزياح الأسلوبي على أفق المتلقي سالبا إياه السيطرة على ذوقه الجمالي، وتقديره المنطقي للأشياء إذ يغدو حجة تنبيهية وتوكيدية تشحن فضاء الاتصال البلاغي بالإغراء والجذب والاستمالة، بالإضافة إلى الشعور بالمتعة الفنية[١١٥]، ولك أن تقدر نوع الشعور وأثره في تلك العبارة الإشهارية التي يمكن أن تظهر على واجهة إحدى محلات بيع الملابس الداخلية للنساء، كتبت بخط عادي، وبلون أحمر مع إضافة إضائية متقطعة: لا تلمسه فهو حار، (Ne le touche pas il est chaud)[١١٦].

إن تحليل هذا الملفوظ الإشهاري بهدف الكشف عن مقصوده الفعلي، من حيث كيفية القول، وكيفة الدلالة يتطلب نظرا في البنية الشكلية النحوية والمعجمية، بالإضافة إلى انزياح الملفوظ عن الواقع الاجتماعي، والأبعاد النفسية والأخلاقية المتصلة بالمتلقي، كما إن تحقق الفهم ينطوي على تضمينات أو إيماءات اجتماعية بالإمكان كشفها من خلال طبيعة الردود الناتجة عن مثل هذه الرسائل المشفرة. إن رصد العلاقات بين هذه الأدوات، وكيفية توظيفها للإقناع بالقول في معرض الدعاية والإشهار -مثلا- يجعل دراسة الحجاج شأنا من شؤون التداوليات. وفي ضوء ذلك يغدو كل خطاب حجاجي قائما على قصدية وفعالية وتأثير، تنجز عملا لغويا في التواصل الاجتماعي[١١٧].

---

(١١٥) المرجع نفسه، ص٦٦.

(١١٦) لعل من الدلالات المفهومة و المقيدة إحالة الملفوظ على الملبوس وعلاقته بالأنثى والجسد، غير أن المقصود غير ذلك بالنسبة إلى صاحب الإشهار، فالعبارة ليست إلا إشهارا بالنقيض على سعر البضاعة المعروضة كقولنا: **"الأسعار نار!!" لا تلمس**. انظر، **نظرية الأدب في القرن العشرين**، ترجمة محمد العمري، ص٦٧.

(١١٧) انظر :حبيب عراب، **"الحجاج والاستدلال الحجاجي، عناصر استقصاء نظري"**، مجلة عالم الفكر، عدد١، مجلد ٣٠، سنة ٢٠٠١، ص ١٠١ وما بعدها.

ولعلنا نستكشف التحـول التاريخي لنظرية الحجاج بشكل جـامع من خلال المخطط التـالي الذي يبين عن حركـة الحجاج منذ ظهورها على يـد أقطاب الفلسفة الإغريقية فـي التقاليد الغربية إلى لحـظة الفصل المنهجية فـي الفكر اللساني التداولي الحديث خلال التقائه بنظريتي البلاغة والأدب[١١٨].

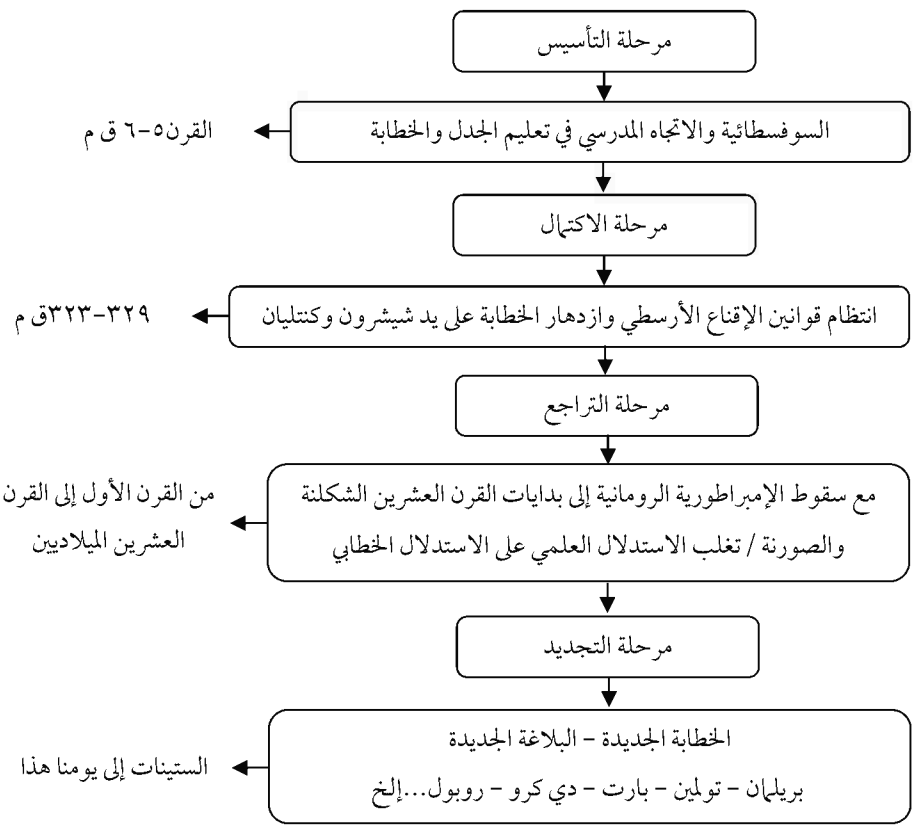

(١١٨) breton (philipe et gauthier gille), histoire des théories de l'argumentation, edition la découverte, paris, 2000, p9-10.

إن تتبع الرصيد المعـرفي للفكرة البلاغية يحيل عـلى تعدد المرجعيات المنشئة لمفهوم البلاغة ذاتها، مما يبرر لتطور المفهوم، وتنوعه، ومن ثم تداخله مع مسارات معرفية أخرى، تشترك معه فـي دراسة القول مثل اللسانيات والنحـو تحليل الخطاب والسيميائية والتداولية والأسلوبية، وليس لدى الدارسين اليوم مفهوم واحد وموحد للمصطلح[١١٩]، بالرغم من اتفاق النزعات الفكرية المختلفة في الإطار العام، أو لنقل الفكرة الجامعة على حد **ميشال ماير** (M.Meyer)[١٢٠].

وفي هذا السياق يؤكد **محمد العمري** قيام الرؤية البلاغية على نظرات معرفية مختلفة، تجمع بين كفايات الوصف والتفسير والمقـارنة، مما يعني ضـرورة الانتفاع بمقدمات علوم الأصوات والصرف والتركيب والمعجم والدلالة، والاستعانة بالمنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع واللسانيات بخاصة بعد تخطيها لحدود الجملة نحو فضاء النص باعتباره الإنجاز الفعلي للغة في التواصل[١٢١]،إذ في تكوينه تتفاعل أنظمة العلامات المختلفة لتنتج نسقا من المعاني الجزئية والكلية يقصد بها إثارة المتلقي، وشد انتباهه، وتوجيهه إلى أداء فعل معين بعد حمله على الإذعان والاستسلام.

لقد غدت البلاغة فعلا وخطابا لا مندوحة من الاتكاء عليه لفهم الإشكالات اللسانية والحجاجية التي تطرحها النصوص المختلفة[١٢٢]، هذا ويشكل الخطاب/ النص

---

(١١٩) البلاغة في اللغة الوصول والانتهاء ومبلغ الشيء منتهاه، وبلاغة الكلام مطابقته لما يقتضيه حـال الخطاب مـع فصاحة الألفاظ إفرادا وتركيبا، السكاكي، **مفتاح العلوم**، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٦٩.

(١٢٠) M.Meyer, Questions de rhetorique , Langage ,raisonet seduction ,Paris ,1993,p15-16 ,voir aussi ;Olivier Reboul,la rhetorique ,que sais-je? Paris, 1984, p5.

(١٢١) محمد العمري، **الحجاج مبحث بلاغي، فما البلاغة؟** ص ١٧.

(١٢٢) البلاغة علم وموضوع في الآن نفسه، فهي علم يصف ويفسر كفاءة التعبير الجميل والمؤثر، وهي موضوع يعبر عن كفاية التعبير نفسها عبر النصوص المختلفة، تلك الكفاية المؤسسة

الموضوع الرئيس لعلم البلاغة، فإليه تشد أنظار الوصف والتحليل قاصدة إبراز أنساقه الدالة، والمؤثرة في الآن نفسه، ومن ثم تحليل خطته القولية الهادفة إلى عرض قضية معينة، والدفاع عنها بأشكال وحجج مختلفة، مما يعني تشييد الوصف البلاغي على أجناس النصوص المختلفة شعرية وخطبية وعادية يهمين فيها الحوار بوصفه أداة وفعلا وغرضا، مما يظهر بجلاء في المناظرات والمساجلات والدعاوى القضائية، وأشكال الخطاب القانوني، والموائد المستديرة، التي تحرر الفكرة بالنقاش والجدل، بل يمتد الحوار مخترقا فنونا أدبية ليس غرضها الأساس الإقناع مثل النص المسرحي والروائي والشعري الملحمي.

أما مصطلح البلاغة الجديدة (Nouvelle Rhetorique) فتستمد التسمية فيه شرعيتة وجودها من مخالفتها منهجيا ومفهوميا لبلاغة المتقدمين اليونانية على وجه التحديد، وامتداداتها عبر القرون الموالية إلى بلاغة المدرسيين في أوربا. وغني عن البيان التذكير بارتكاز النظر البلاغي القديم على ربط الخطابة من حيث كونها أداء لغويا موجها إلى جمهور من المستمعين بغرض الإقناع بوساطة الحجج المختلفة، والتي يتجه بعضها إلى القائل نفسه في ضوء شروط أخلاقية ذاتية يتصف بها، بينما يتجه البعض الآخر إلى السامع مركزة على حالته النفسية[١٢٣].

على لعبة الاحتمالات اللغوية في تأرجحها بين صدقية الواقع، وتخييل الصورة، انظر محمد العمري، **الحجاج مبحث بلاغي، فما البلاغة؟** ص٢٢.

(١٢٣) أرسطو، **الخطابة**، تعريب عبد الرحمن بدوي، ط٢، بغداد، سنة ١٣٥٥،١٩٨٦ب-١٣٥٦أ، وانظر في هذا السياق أيضا: عبد الله صولة، **البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديد**، ضمن الحجاج، كتاب جماعي، جمع حافيظ علوي، ١/ ٢٨ وما بعدها.

أما البلاغة الجديدة فقد تأسست من خلال نظرياتها المتنوعة على تعددية النظر إلى الوسيلة البلاغية والحجاجية، وأهميتها في التلفظ فعلى صعيد العناية بحجة القول ذاته، أو الخطاب من حيث كونه حجة في ذاته، فهو علامة دالة على، تتصدر جهود **تولمين** (١٩٥٨) و**بريلمان** (١٩٥٨)، و**دي كرو** (١٩٧٢) وجماعة"M" (١٩٧٠)، أما جهود **بورك** (Burke) (١٩٥٠)، وهابرماس (١٩٦٨)، **وج. سيريل** (١٩٦٩)، فتتنزل في سياق الاعتناء بحجة الإيتوس، بينما تركز جهود البلاغة الأمريكية في أعمال ويفر (١٩٥٠) و**آيزر** (١٩٧٧) على حجة الباتوس (Pathos)[١٢٤].

ومما تجدر الإشارة إليه أن نظرية الحجاج أو البلاغة الجديدة من حيث كونها نظرية عامة في تحليل الخطاب تركز على دراسة معينات الفعل الحجاجي، وأدواته الضابطة لعمله في الحدث الكلامي، باعتباره عملا لغويا منجزا في سياق تحاوري معين، ومن ثم يمكن للدارس في إطار تحليل الخطاب تحليلا لسانيا تداوليا أن يستدعي مفهومات نظرية البلاغة الجديدة في بعدها الحجاجي لتفسير القيمة الحجاجية اللسانية للملفوظ باعتباره قضية، وفعلا مضمنا في القول، يقوم على أدوات تحدد غايته الإبلاغية والإقناعية في الآن ذاته.

وفي هذا السياق نبه كل من **بريلمان** و**تيتكا** إلى ضرورة إقامة ارتباط بين تحليل الخطاب ومسألة تحديد الروابط النصية باعتبارها وسائل حجاجية معتمدة في بناء

---

(١٢٤) عبد الله صولة، **البلاغة العربية**، ص ٣٠. كما ينظر أيضا حمادي صمود، **"هل تكون البلاغة كلها حجاجا"؟** مجلة دراسات لسانية، عدد ٥، تونس، ١٩٩٧، فهذا السؤال المبدئي يعد نقطة ارتكاز للعلاقة الحميمة التي شيد عليها صرح البلاغة الجديدة، بوصفها نظرية حجاجية، أما عن دلالة المصطلحات المذكورة فينظر: Michel Meyer,Histoire de la Rhetorique des Grecs a nos jours .1999, p255.

النص الحجاجي[١٢٥]، مما يعني تأسيس وصف داخلي للبنية الحجاجية في إطار بنوي عام ينفض يديه من آثار الحجج الخارجية المقامية والظروف غير اللسانية.

كما يتبرأ من الوصف الجمالي الذي يهيمن على الرؤية البلاغية والنقد الأدبي، وفي هذا السياق يؤكد عبد الله صولة ارتكاز نظرية الحجاج عند **بريلمان** على دراسة تقنيات الخطاب التي تؤدي بتوظيفها إلى إذعان المستمع، وتسليمه زيادة على ذلك بموضوع الأطروحة وحججها[١٢٦]، على سبيل التوجيه للأنفع[١٢٧]، ومن خلال طريقين حجاجيين مختلفين هما؛ طريقتا الوصل والفصل[١٢٨]. وفي هذا السياق يذكر عبد الله صولة بارتكاز

---

(١٢٥) Ibid, p255 ,et aussi Prelmane, Titka, 8-10-669

(١٢٦) عبد الله صولة، ص٣٢و٣٣، وانظر توسعا: A.Berrondonner, Elements de Pragmatique linguistique,ed ,Minuit,1981,p11-12.

(١٢٧) المقصود بالأنفع والأجدى (Loi de l utilite)، لماذا قال المتكلم ما قال؟ والإجابة تحدد بناء على مقتضى السياق، وقد وصف بروندونيي هذا النوع من السؤال التأويلي بالتداولية المدمجة، أو نظرية الدلالة وفق الشكل Y، انظر تفصيل ذلك في المعجم وأيضا، عبد الله صولة، مرجع سابق، ص ٣٣. ومما يتصل بهذا السؤال سؤال آخر لا يقل عنه أهمية هو: **لماذا اختار المتكلم هذه الوحدات اللسانية، ولم يختر غيرها في مسلك القول المعبر به؟**، مما يوجه إلى وجه النّفع الذي يتحقق في ضوء تلك الاختيارات التّعبيرية والأسلوبية في ضبط الفوارق الحجاجية للوسائل والوحدات.

(١٢٨) عالج **بريلمان** في كتابه آنف الذكر أشكال الحجاج، وأساليبه، مميزا بين الطريقة الاتصالية والطريقة الانفصالية، فأما الاتصالية فتقوم على ضم فكرة إلى أخرى بغض النظر عن اتفاقهما أو اختلافهما على سبيل علاقة الأسباب بنتائجها منطقيا، مثل الوصل السببي، أو حجة السلطة مما يمكن عدّه حجاجا مبنيا على الواقع أو مؤسسا له، مثل الاستعارة، أما الطريقة الانفصالية فتقام على تجزئة الكل إلى فكرتين مختلفتين بالرغم من كونهما مشتقتين من أصل واحد على سبيل مخالفة ما هو كائن لما يجب أن يكون حقيقة أو افتراضا.

مفهومي الوصل والفصل عند بريلمان على التجريد الفلسفي بالرغم من صفتهما اللغوية التي تظهر في نظرية السلالم الحجاجية والمربعات الحجاجية عند **أنسكومر ودي كرو**.

وعلى صعيد آخر يمكن تمثل طرائق الوصل والفصل في دراسة الوجوه البلاغية من بيان وبديع ومعان بالشكل الذي ينقل هذه الوجوه من مجرد كونها ملامح لغوية اختيارية تجمل العبارة فتضفي عليها شعرية ممتعة إلى أن تكون أدوات حجاجية تفاضلية ذات شأن في بناء الخطاب الحجاجي اليومي من حيث كونه خطابا لسانيا تواصليا ينجز في سياقات التخاطب المختلفة بين المتكلم والمتلقي(١٢٩). هذا ولم يعد سرا مكتوما ارتباط درس الحجاج بالبلاغة الجديدة - كما ذكر سلفا- التي تمثل تصوراتها الأساسية في القول تجديدا وتصحيحا لمسار البلاغة القديمة القائمة على وجهة النظر الأرسطية، والتي احتج فيها لمسارات تشكل القول الخطابي في صورته القضائية الإغريقية بالحجة المنطقية بالدرجة الأولى(١٣٠).

لقد انتبذت التصورات البلاغية الجديدة التي أرسى جهازها المفاهيمي مع منتصف القرن العشرين كل **من بريلمان وتيتكا** في كتابهما الضخم **"مصنف في الحجاج"**

---

(١٢٩) يشير صولة إلى إمكان الإفادة من طريقتي الوصل والفصل في دراسة الاستعارة والمجاز المرسل والتذييل والاعتراض والطباق والمقابلة ضمن النوع الأول، والقصر والاحتراس والتتميم والاعتراض والطباق والمقابلة أيضا في النوع الثاني بحسب الشكل الذي تتحققان به في التلفظ، انظر عبد الله صوله، مرجع سابق، ص ٥٤.

(١٣٠) انظر تفاصيل ظهور الخطاب القضائي الإغريقي في الفضاء الديمقراطي، وتوجيهه للبلاغة والخطابة القديمتين في: رولان بارت، **البلاغة القديمة**، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، منشورات الفنك، ١٩٩٤، ص٣٨، وانظر أيضا: أحمد الفوجي، **فن الخطابة**، دار نهضة مصر، ط٥، ص٣٩، وأيضا: رولان بارت، **البلاغة القديمة**، ص٣٤، وانظر عرضا جامعا لـ: حفيظ علوي في: مقدمة **كتاب الحجاج**، ص٥-٦.

تلك التصورات الشّمولية التي تحصر الإقناع في صورته العقلية المجردة والصارمة صرامة الاستدلال المنطقي، بعيدا عن استعمالات اللغة الحية وأحول مستخدميها من متكلمين ومستمعين من حيث أهواءهم ونزعاتهم الفكرية ومستوياتهم المعرفية والإدراكية[١٣١]، إذ رشحت البلاغة القديمة القول الخطابي بخاصة عند السوفسطائية إلى أن يكون أداة حوارية للدفاع عن الرأي، والنيل في الوقت ذاته من الرأي المضاد بتوسل كل الحجج والبراهين العقلية والمادية بما فيها المغالطات الحجاجية الموهة على الحقيقة العينية بصورة رئيسة، ثم تحولت إلى نشاط يتعلم وفق قواعد صناعية معينة بهدف تخريج المحامين والقضاة وخطباء السياسة والرأي[١٣٢].

لقد كان مبتغى **بريلمان** التأسيس لرؤية بلاغية جديدة مسايرة لروح العصر المدني الديمقراطي في الغرب، القائم على الحرية الفردية، والتسامح المذهبي على الأقل في أدبيات تشكله، بعيد عن تمويهات السفسطة القديمة المتلبسة بإزار تحرري حديث، ربما ينال من عواطف الجماهير العريضة فيوقعها في حبائل غوايته الإيديولوجية[١٣٣]. ولعلنا نقترب من أهم الاتجاهات الحديثة المقاربة للحجاج من خلال تمثل الخطاطة الآتية:

---

(١٣١) Traite de L argumentation. p12، وانظر محمد الأمين محمد سالم، **مفهوم الحجاج عند بريلمان**، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ص١٨٢-١٨٥.

(١٣٢) عن تاريخ الخطابة والخطباء الإغريق والرومان ينظر: **تاريخ الأدب الغربي**، كما ينظر في سياق نقود الفلاسفة القدماء سقراط وأفلاطون وأرسطو للمسار السوفسطائي المغالطي: عبدالرزاق بنور، **جدل حول الخطابة والحجاج**، ص٤٠.

(١٣٣) انظر: عبدالله صولة، **الحجاج، أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج**، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج، بإشراف حمادي صمود، كلية الآداب، تونس، ص ٢٨٩، وانظر تعليق حافيظ علوي في المقدمة سالفة الذكر، ص ١٠.

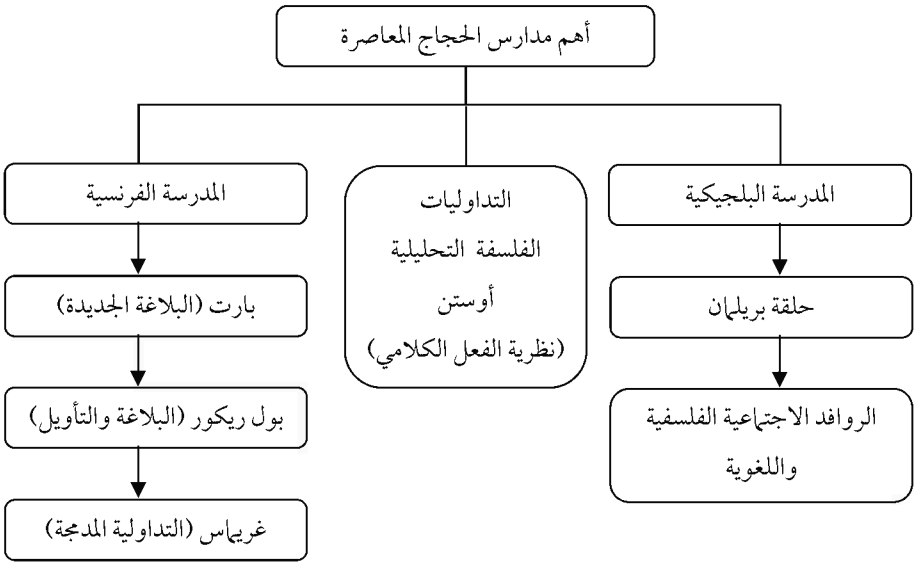

٧- الرؤية الحجاجية، وسنة التطور

لقد تجدد النظر البلاغي في الغرب عبر ممارسات لسانية ونقدية وفلسفية متعددة في كل من بلجيكا وفرنسا وألمانيا، ولعل أهم الجهود التي سعت إلى إعادة قراءة البلاغة الكلاسيكية -كما مر بنا- وربطها باللسانيات والتركيز على مفهوم الحجاج باعتباره المفهوم المفصلي للحدث البلاغي جهود **بريلمان** و**تيتيكا** بخاصة في مؤلفهما **"البلاغة الجديدة، مصنف في الحجاج"**، والذي عدّ شرارة أولى لانطلاق الدراسات البلاغية الدائرة على الحجاج في الشرق والغرب[١٣٤].

فقد قدما مشروعا متكاملا طابقا فيه البلاغة بالحجاج فغديا وجهين لعملة واحدة، كما يشير العنوان السالف[١٣٥]، وقد اكتسحت رؤيتهما ميادين علمية مختلفة مثل

---

(١٣٤) انظر: صلاح فضل، **بلاغة الخطاب وعلم النص**، ص١٢٢.

(١٣٥) انظر: محمد العمري، **البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول**، ص٢١٦.

الاتصال المكتوب والشفوي (فن الإلقاء)، والتحليل النقدي للأدب مثل الخطاب السياسي والإشهاري وغيرها من المجالات، وما هذا التوسع في الحقيقة إلا لأن الحجاج عمل لغوي منطقي غير ملزم، يتوجه به إلى مستمع في سياق لغوي طبيعي واجتماعي، نفذ في أشكال النصوص والخطابات المختلفة، المرتهن وجودها وديناميكيتها بمقامات التبليغ المختلفة(١٣٦).

هذا وقد قام تصور **"شايم بريلمان"**(١٣٧) للحجاج بوصفه لغوية تطمح إلى إقناع المحاجَج بفكرة أو أطروحة ما، أو أن يزيد في درجة التسليم والإذعان لها(١٣٨)، وبالرغم من أهمية البعد الحجاجي في الخطابات فإن بريلمان أقر بعدم عناية الدارسين به موضوعا علميا في دراساتهم على الأقل في الفترة التي صدر فيها مؤلفه سالف الذكر، ولعل سبب استنكافهم عن الاقتراب من حدوده وأطره اتصاله بالمجالات المعرفية والفلسفية، والاعتقاد بأنه موضوع غير جدير بالعناية من الناحيتين اللسانية والأدبية وربما كان حكرا على المهتمين بتحليل الخطاب السياسي أو الإعلامي(١٣٩)، أما الأسس

---

(١٣٦) M.Meyer, logique, langage et argumentation, op.cit, p136. وانظر: أوليفي روبول، **هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟**، ضمن كتاب البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص٢٢٠.

(١٣٧) يتنزل تصور الحجاج عند بريلمان في سياق البلاغة الجديدة، (la nouvelle rhétorique) المؤطرة نظريا بالفلسفة والعلوم الاجتماعية وعلوم الإعلام والاتصال و الإبداع الأدبي.

(١٣٨) Perelman, O, Tyteca, traité de l'argumentation, p5.

(١٣٩) انظر: صلاح فضل، **بلاغة الخطاب وعلم النص**، ص٧٤ وما بعدها، وانظر ما ذكره بريلمان في Ch. Brelman, l'empire rhétorique, rhétorique et argumentation, ed librairie philosophique, vrin, paris, 1977, p9-10.

والمحددات النظرية التي يقوم عليها تصور الحجاج عند **بريلمان** بخاصة ومعاونيه وتلامذته من الاتّجاه البلجيكي، فيمكن إجمالها في المفاصل الآتية[١٤٠]:

١- يقوم الفعل الحجاجي على تحقيق وظائف تداولية أساسية هي الإقناع الفكري والإعداد لقبول الأطروحة المحددة، والدفع بالمحاجَج إلى الفعل(التأثر).

٢- الكفاءة الحجاجية رهينة درجة الأثر الذي يتحقق لدى المحاجَج.

٣- انتماء البلاغة إلى دائرة الحجاج وتلبسها به في جميع السياقات اللغوية والأدبية والاجتماعية[١٤١].

٤- بنية الحجاج منطقية احتمالية في الحجة والنتيجة مؤطرة بالنظامين اللغوي والاجتماعي.

٥- يشكل الفعل الحجاجي عبر نوعين حجاجيين أحدهما (L'Argumentation Persuasive) يقوم على مخاطبة العاطفة والخيال، وثانيهما إقناعي عقلي حر في الاختيار (Argumentation Persuasive).

٦- ارتباط الحجاج عند **بريلمان** بالاستدلال والخطابة ارتباطا عضويا وموضوعيا.

٧- التركيز على الخطاب المكتوب وآليات الحجاج فيه مرتبطة بالتأويل، وإدراك علاقة الكاتب بالقارئ والمقام الذي يحيط بهما.

٨- التركيز على المكونات النفسية والمعرفية والاجتماعية التي تتشكل منها الخطة الحجاجية[١٤٢].

---

(١٤٠) rhétorique et argumentation, p26-27-31, et traité de l'argumentation, p59

(١٤١) أوليفي رويول، **هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي**، ترجمة، محمد العمري، علامات، ديسمبر، ١٩٩٦، ص٧٧.

(١٤٢) traité de l'argumentation, op.cit, p161.

٩- التأكيد على وظيفة المستمع الغائب (القارئ) في إنتاج الدلالة، وفهم أبعاد الفعل الحجاجي في الخطابات.

١٠- تنحصر المقدمات الحجاجية عند بريلمان في: الوقائع والحقائق والافتراضات والقيم والمواضع[١٤٣]. ويلخص المخطط التالي هذه المقدمات انطلاقا من أمثلتها التحققية[١٤٤]:

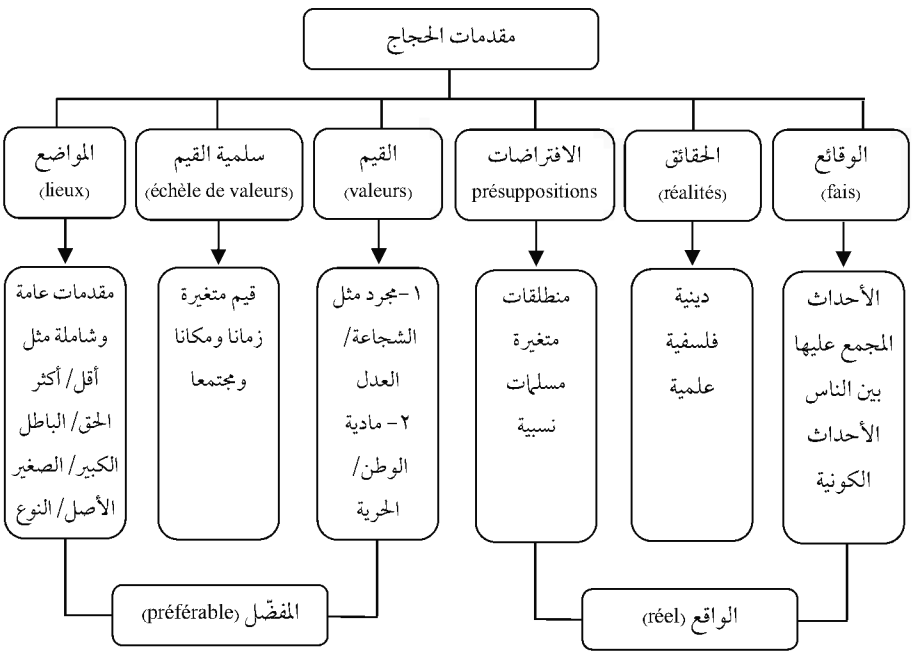

(١٤٣) Ibid, p89.

(١٤٤) traité de l'argumentation, p89.

وانظر أيضا محمد الأمين الطلبة، **الحجاج في البلاغة المعاصرة**، ص١١٢ وما بعدها.

كما يبين المخطط التالي أنواع الحجاج عندهما:

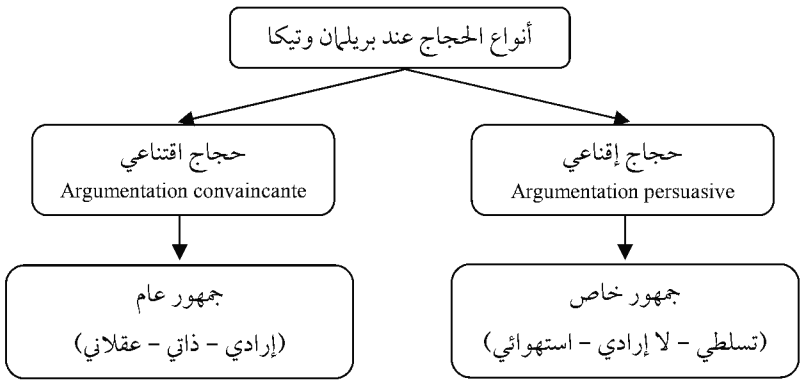

٨- العمل الحجاجي (Acte Argumentatif)

ضمن نظرية الأعمال اللغوية

تتصدر نظرية الأعمال اللغوية بوصفها نظرية وصفية تحليلية للقول الذي ينجز عملا (Acte) ما في سياق التواصل أولوية البحث التداولي المعاصر، وقد بات من المعروف تأسيسها على المقولة الأوستينية التساؤلية: "كيف ننجز الأشياء بالكلمات؟" أو "how to do things with words"، والحقيقة أن العمل اللغوي (acte de langage) محدد بجملة الظروف المقامية التي تتحكم في إنجازيته وفاعليته وتأثيره في تغيير السلوك الفردي والجمعي[١٤٥].

كما إن كثيرا من الأقوال التي يتلفظ بها في سياقات إخبارية تقريرية في حقيقة الأمر تنجز أعمالا أدائية مباشرة، وغير مباشرة يمكن التعبير عنها مبدئيا وبصورة مبسطة بالأغراض الكلامية، وينبه أوستن في سياق ذلك إلى أن العبارات الوصفية

(١٤٥) المرجع نفسه، ص ١٠١.

ليست دائما وصفية لما ينطوي عليه هذا الاعتقاد من مغالطة وصفية لا يمكن القبول بها، فأن تصف فذلك يعني أنك تخبر أو تطلب أو تلزم أو تعبّر أو تفسر أو تسرد أو تحاجج، وكلها أعمال مادية لها أثرها في الواقع المتحقق، فعبارة مثل: "الباب يفوت جملا" ليست مجرد ملفوظ وصفي إخباري يقف عند حقيقة مفادها علو الباب وارتفاعه إلى درجة يمكن مرور جمل من خلاله إلى فضاء آخر خارج الباب مثلما تحيل عليه الدلالة المعجمية للألفاظ وفق توافق سماتها المعجمية الصغرى (التيمات).

بل هي دعوة للخروج لمن أراد الخروج في سياق طرد غير صريح، وبمعنى أدق أضمرت العبارة الإخبارية في ضوء السياق المعين فعل الطرد (اخرج)، وهو عمل إنجازي طلبي يتوجه به المتكلم نحو العالم المحيط بالمخاطب، واتجاه مطابقة الفعل فيه من اللغة إلى العالم[١٤٦]، وتلافيا لتكرار كثير، قد نقع فيه، آثرنا اختصار تصورات **أوستين** الجذرية في العمل اللغوي في سياق تشكله اللساني وإنجازيته المقامية في التفريع التالي:

كما عمل **دي كرو** على تطوير نظرية حجاجية مولدة من التصور الأوستيني للفعل الكلامي (Acte deLangage) تنهض على عد الفعل الحجاجي عملا لغويا يقصد به إحداث تحول قانوني في صيرورة عمل القول الطبيعي، يتحكم في أعمال المتكلم والمخاطب[١٤٧]. وهذا الفعل المنجز باللغة يتم تشكّله لسانيا من خلال بنية لغوية معينة، تضطلع فيها أدوات لغوية بتحقيق ما يمكن عده قوة حجاجية منجزة لفعل الحجاج بدء من المكونات الصوتية للحدث الكلامي، ومرورا ببنية الوحدات الصرفية وأشكال

---

(١٤٦) فرانسواز أرمنكو، **المقاربة التداولية**، ص، وانظر أيضا مناقشة المفهوم في: شكري مبخوت، **دائرة الأعمال اللغوية، مراجعات ومقترحات**، الكتاب الجديد المتحدة، ط١، لبنان، سنة ٢٠١٠، ص٩٧ وما بعدها.

(١٤٧) Ducrot ,dire et ne pas dire, Herman, Paris. 1972, p286-287

التركيب النحوي، وانتهاء بالمكونات الأسلوبية والاختيارات البلاغية المفردة والمركبة، والتي يتم تشكيلها بعلاقات لغوية على المحورين **الباراديغماتي (الجدولي/ الاستبدالي)** و**السينتكغماتي** (التركيبي/ النسقي) لتنتج في الخطاب منظومة متماسكة ومرتبة من الحجج المفضية إلى نتائج دلالية تحقق التأثير النفسي والذهني[١٤٨].

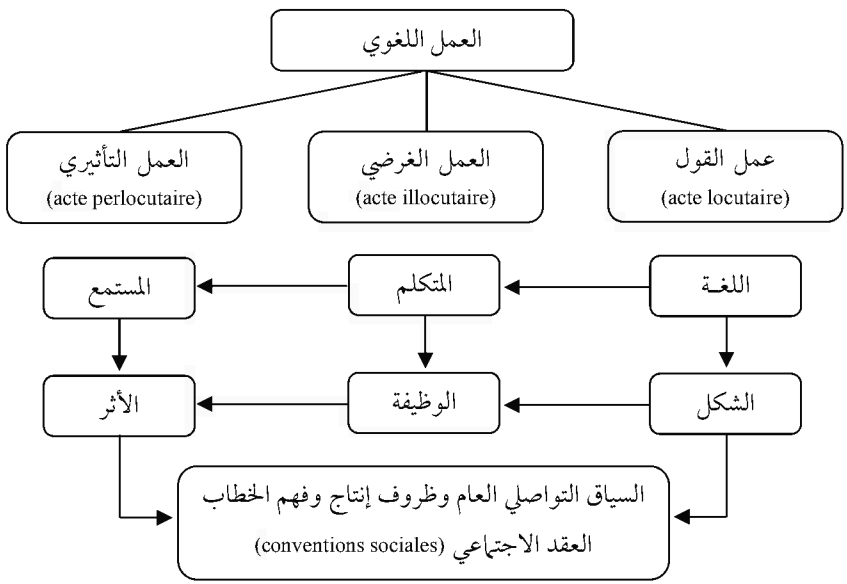

يتم التعرف على سلوكها التداولي في التخاطب أو التواصل الكتابي في ضوء التحليل النصي التداولي للحدث الكلامي في ضوء تحليل المكونات السياقية واللسانية

(١٤٨) المرجع السابق، ص٥٨، وانظر أيضا وجهة نظر **دي كرو** نفسه في: Les echelles argumentatives, Minuit, Paris, 1980, p10-12 وفي هذا السياق من المفيد التنبيه إلى اختلاف الخطابات الحجاجية من حيث الإفصاح عن مكونات الوحدة الحجاجية أو إضمار جزء منها، كما ينبه إلى أهم سمات الحجة اللغوية، فهي سياقية ونسبية وقابلة للإبطال، انظر أبو بكر العزاوي، مرجع ساق، ص٥٩

والمنطقية التي ينهض عليها التآلف بين الصريح والضمني[١٤٩]، أما العمل الحجاجي فعمل مضمر في الحد الفاصل بين عمل القول المصرح به وعمل التأثير، أي في نطاق العمل الغرضي، الذي يعبر عن وظيفة القول الحقيقية، وكلما كانت المحددات اللغوية والموجهات الأسلوبية والبلاغية أظهر، كلما ارتفعت درجة القوة الإنجازية[١٥٠] من حيث هي طاقة موجودة في القول بعد تشكله البنيوي[١٥١]، وأضحى العمل الغرضي عملا حجاجيا صريحا.

إن هذا التلازم يظهر بقوة في الأداء الحواري المشاجري في المرافعات الجنائية بخاصة أين تتحول الأقوال إلى أعمال اتهام صريحة أو أعمال تشكيك وسرد وبرهان واستمالة وشكر وطلب والتزام ووعد ووعيد وإعلانات وأحكام نافذة وغير ذلك في سياق جدي متصل بمعرفة شاملة للعالم والمقام واللغة التي تتخذ وسيلة للهجوم والدفاع في الآن نفسه، وفي هذا السياق الحجاجي المؤطر ببلاغة القول والمؤثرات النفسية والاجتماعية والإيديولوجية كانت العبارة التخيلية "تخيلوا معي ماذا لو كانت هذه الفتاة بنت سبعة عشر عاما بيضاء" فعلا طلبيا لا ينفض يديه من مكونات لا ذهنية ونفسية عملا طلبيا حجاجيا موفقا قاد إلى استمالة هيئة المحلفين، واللعب على عواطفهم وقودهم إلى إنجاز عمل حكمي موفق ببراءة قاتل، والإعلان بأنه غير مذنب بالرغم من ارتكابه جريمة قتل في حق شابين.

---

(١٤٩) ميشال مايير، **المنطق واللغة والحجاج**، ترجمة محمد أسيداه، بحث لنيل الإجازة في اللغة العربية وآدابها، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، ١٤١١/ ١٩٩١م، ص ١٢٤.

(١٥٠) راجع مفهوم القوة الإنجازية في: شكري مبخوت، في فقرة وسم قوة القول، **دائرة الأعمال اللغوية**، ص ٥٧.

(١٥١) المرجع نفسه، ص ٥٣.

لقد نفذ ممثل المتهم (المتكلم) بعمق بصيرته إلى آفاق توقعات الهيئة المحلفة في ضوء منظومة القيم التي تؤطر رؤيتهم للعالم والعلاقات الإنسانية، مستفيدا من غواية السرد قائلا لهم بعد أن طلب منهم إغلاق عيونهم والإنصات جيدا لقلوبهم، لِما سيرويه من حكاية مأساوية ضحيتها فتاة زنجية ذات سبعة عشر ربيعا خرجت من بيت الأسرة ولم تعد أبدا، فقد اعترضها وحشان فاختطفاها ثم انتهكا براءتها وعفافها ثم قررا تحويلها إلى هدف تناولته أيديهما بالقذف بعد أن مرغاها في التراب وتبولا عليها، ولم ينجدها تضرعها وبكاؤها شيئا، فقد قرروا شنقها بكل برودة دم فتدلت رقبتها الهزيلة من أغصان شجرة وحدية، ثم رمي بها من أعلى الجسر الذي تعرفون لتتكسر جزءا جزءا، هذه القتيلة بنت القاتل، فماذا لو كانت هذه الفتاة بنت السبعة عشر ربيعا فتاة بيضاء؟![١٥٢]. هذا وتعد الكفاءة الحجاجية لدى المحاجج على قدرته الذاتية في إقناع الآخرين من خلال حذقه اللغة وامتلاكه ناصيتها (الملكة اللسانية)، وقدرته على التخطيط الحجاجي، وبناء إستراتيجية النص من خلال وعيه المبكر بالأفكار التي يؤمن بها المحاجَج ليعمل على تدعيمها وتأكيدها بشتى الحجج الممكنة مسلحا بعامل المفاجأة الذي يخرق أفق توقعاتهم الفكرية واللغوية[١٥٣].

إن الكفاية الإنتاجية للمحاجج لا تتوقف في الحقيقة عند حشد الأدلة والحجج اللازمة، وترتيبها بصورة مسبقة لا تعنى بالمتلقي بل محصلة النجاح قائمة على توافق

---

(١٥٢) هذا النص السردي مجتزأ من مرافعة جنائية عرضت في فيلم أمريكي يروي قصة الصراع بين البيض والسود في الجنوب الأمريكي، وموقف العدالة من ذلك. عرض هذا الفيلم في mbc2 بتاريخ ٣٠ مايو ٢٠١٠.

(١٥٣) انظر: محمد الأمين الطلبة، **الحجاج في البلاغة المعاصرة**، ص١١٤. وانظر عبد الله صولة، **الحجاج، أطره ومنطلقاته**، ضمن أهم نظريات الحجاج، ص٣١٧.

تأويل الحجج لدى المتلقين مع ما يطمح إليه من أفهام يرتضيها لحصول الإقناع، ومن ثم الاقتناع[١٥٤]، ناهيك عن التسلح بالوسائل البيانية والأسلوبية مثل التكرار والتوكيد والإطناب والترادف وتعدد الصفات وحشد الأمثلة المختلفة، وتحقيق الانسجام بين المقال والمقام (رعاية مقتضى الحال)[١٥٥]. إن التحكم في توظيف هذه الوسائل هو السبيل لتحقيق قوة العمل الحجاجي، وفعاليته الإقناعية على حد تأكيد غولدر (Golder)[١٥٦]، وكلما عمدنا إلى الاستجابة لمقتضيات تتوخى النظر في طبيعة العمليات التي نبتغي منها إما تقديم النتائج على شكل إثباتات، أو أن يكون الهدف هو أنواع عن طريق الاتفاق أو التوافق[١٥٧]. إن هذه الوسائل الأدائية المتصلة بالعمل الإنجازي الحجاجي تنتمي إلى الموجهات التعبيرية (Modalité expressive)، والتي تتفرع بدورها إلى[١٥٨]:

١ – موجه إثباتي (modalité assertive) ⟵ عام

---

(١٥٤) انظر: عبد الله صوله، **الحجاج أطره ومنطلقاته**، ص٣١٥. وانظر عادل عبد اللطيف، **خطاب المناظرة**، ص ٧٥ وانظر traité de l'argumentation, op.cit, 4ed, chap 3, p194-198.

(١٥٥) تعد الكفاءة الحجاجية لدى المخاطب كفاية تداولية مشتقة من الكفاءة اللسانية التي تعني في العرف النحوي التوليدية معرفة المتكلم المستمع المثالي الضمنية بقواعد لغة المنشأ، المكتسبة فطريا وعفويا، وفي ضوء ذلك يمكن الزعم بأن الإنسان يولد مزودا بقدة إنتاج الجمل الامتناهية في اللغة الأم وفهمها، وكذلك ضوابط تداولها اجتماعيا، انطلاقا من المنوال اللساني التواصلي الذي يبنيه في مرحلة مبكرة، معتمدا في ذلك على ما يستقيه من بيئته من أعـراف اجتماعية تواصلية. انظر ارتباط نجاح التخاطب فـي قدرة المخاطب على التأثير والاستمالة في: حسن مودن، **"دور المخاطب في إنتاج الخطاب الحجاجي"**، ص ٢٤٠.

(١٥٦) Golder,Caroline,le devloppement des discours argumentatifs de la chaux et Niestle, Paris, 1996, p31-51-78-108.

(١٥٧) انظر: حسان الباهي، **العلم والبناء الحجاجي**، ص ٢١٢.

(١٥٨) traité de l'argumentation, p213.

٢- موجه إلزامي (modalité conjonctive) ⟵ صيغة الأمر والآمر

٣- موجه استفهامي (modalité interrogative) ⟵ السؤال/ الجواب (الحوار)

٩- بنية الحجاج ومكوناته الأساسية

يبنى الحجاج على مقدمات وفرضيات وتصورات، لعل أهمها ما يعرف بالوقائع (LesFaits) التي تعكس المشترك من المفاهيم والتصورات بين الجماعة، تلك التصورات التي تفرض سطوتها باعتبارها مسلمات غير قابلة للدحض على التفكير الفردي التابع لرؤية الجماعة، أما الحقائق (Verites) فلها مصداقية القبول الجماعي أيضا من حيث مرجعيتها الدينية أو العلمية أو الفلسفية، وكثيرا ما يتم الربط بين الوقائع والحقائق في سياق دمج اليقين بالاعتقاد لترسيخ الرؤية المطروحة أمام المحاجَج[١٥٩].

كما يتعزز المدخل إلى الحجاج بالافتراضات (Presomption) التي تعد أيضا حقائق أقل قوة من حيث إقناعيتها، فهي مشروطة بأدوات حجاجية رديفة تعزز مكانتها الحجاجية[١٦٠]، ولعل من مقومات الحجاج التي لا يبتغي عنها فصالا القيم (Valeure) لما لها من تأثير نافذ في تصورات الجماعات الفئوية، فقد تكون القيم أخلاقية أو مادية أو سلوكية أو تاريخية[١٦١]، تستنهض بها همم الناس لخدمة قضية معينة، أو الذب عن مشروع اجتماعي أو حضاري معين، أو حمل المستمعين على الإيمان ببرنامج حزبي أو رؤية سياسية معينة، ولا يقوم الحجاج عند بريلمان على هذا النوع فحسب، بل لا بد من

---

(١٥٩) ibid, p87-90-93

(١٦٠) Chaim Prelman et Olbrechts Tyteca, Traite de l argumentation, p93

(١٦١) ibid, p 99-100

ترتيب هذه القيم في سلم هرمي يجعل منها هرميات فكرية مسلم بها (Hierarchies)، تحقق حجاجية القول، ولعلها تكتسي أهمية أكثر فائدة بالنسبة إلى القيم ذاتها[١٦٢] .

كما عرض بريلمان وتيتكا إلى المواضع (Les Lieux) بوصفها مقدمات عامة، تتسم بالشمولية، والتكيف مع جميع السياقات التخاطبية، هذا وقد ميزا بين مواضع الكم والكيف ومواضع أخرى، فأما مواضع الكم، فها تثبت أفضلية الشيء بالنظر إلى معيار الكم، وأما مواضع الكيف فتمتاز بمرونتها مثل قولنا: الحق يعلو ولا يعلى عليه مهما كان عدد خصومه.

وأما النوع الثالث، فيمكن التمييز فيها بين موضع قائم على ترتيب العناصر وأفضليتها بناء على سبقها، "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"، ومنه أفضلية الموجود الواقعي على الممكن والاحتمالي، ومنه موضع الجوهر الذي يعني إعطاء قيمة للشخص من حيث كونه ممثلا للجوهر[١٦٣].

كما اهتم الدرس الحجاجي القديم والحديث كلاهما بعرض التقنيات (Technique d'argumentation) التي تقوم عليها سياسة المحاججة في الخطاب أيا كان نوعه، وما تضطلع به من عمل تأثيري على المتلقي، وقو ة إنجازية مصاحبة له[١٦٤]، وفي هذا السياق ميز **بريلمان** بين نوعين من الآليات[١٦٥] التي يعتمدها العمل الحجاجي لبسط دعوى ما والدعوة إليها بالأدلة والحجج اللازمة هما: ١-تقنية الوصل (procédés de liaisons)، التي تسمح بتقريب المتباينات، وتقويم أجزائها سلبا أو إيجابا، ٢- تقنية الفصل

---

(١٦٢) ibid, p109

(١٦٣) ibid, 119 وانظر عرض عبد الله صوله، **الحجاج، أطره ومنطلقاته**، ص ١٢ .

(١٦٤) Prelemen, traité de l'argumentation

(١٦٥) traité de l'argumentation, p259,272,263,292,294,354,375,398,501,509,518

(procédés de dissociation)، التي تستخدم لإحداث قطيعة تضعف الروابط بين أجزاء الخطاب[١٦٦]، وقبل الحديث عن الحجج القائمة على تقنية الاتصال يجدر بنا التذكير بمفهوم الحجة، وأنواعها في السياق التداولي. فالحجة حقيقة تفاعلية تتجلى في تزاوج القصد والتكلم والاستماع والسياق واندماجها جميعا في بنية مقامية واحدة تؤهلها لأن تكون عملا حقيقيا ملموسا ذا خلفية عقلية[١٦٧] وفق ما أنتجته نظرية الأعمال اللغوية من رؤية مصاحبة للحدث الكلامي الذي ينجز في السياق التداولي فعلا مركبا من مستويات ثلاثة هي عمل القول (acte locutoire) والعمل التكلمي (acte illocutoire) والعمل الغرضي (acte perlocutoire) من وجهة نظر ج. سيريل (John R. Searle)[١٦٨].

على أن فعالية هذا العمل مرتبطة بمدى تطبيق قواعد التعاون الحواري التي أرسى دعامتها **بول غرايس** (H. Paul. Grice) في أربعة قواعد أساسية هي: ١- قاعدة الكم، ٢- قاعدة الكيف، ٣- قاعدة العلاقة، ٤- قاعدة الجهة[١٦٩]. أما الأنواع الأساسة للحجة فهي ثلاثة على ما بسطتها الأنظار الحديثة[١٧٠]:

١- الحجة الاستدلالية المتنقلة المجردة.

٢- الحجة الاستدلالية المنجزة من طرف المتكلم (الحجة التوجيهية).

---

(١٦٦) ibid-p255-256

(١٦٧) انظر :طه عبد الرحمن، **اللسان و الميزان**، ص٢٦٩.

(١٦٨) معلوم أن سيريل ضبط نجاعة العمل اللغوي بشروط تتعلق بمضمون القضية والشروط الجوهرية وشروط الصدق. انظر المرجع نفسه، ص ٢٦٠، وانظر: Introduction a la Linguistique Contemporaine ,p 138.

(١٦٩) المرجع نفسه، ص٢٦٠-٢٧١. وانظر في هذا المقام تفصيلا: آن روبول وجاك موشلار، **التداولية اليوم، علم جديد في التواصل**، ص ٥٣.

(١٧٠) انظر: طه عبد الرحمن، **اللسان و الميزان**، ص٢٥٤-٢٧٢.

٣- الحجة الاستدلالية الموجهة من طرف المخاطب (الحجة التقويمية). أما عن مركزية التقنيات الحجاجية بوصفها بـؤرة العـمل الحجاجي، وأداة تمكينه الأساسية للظفر بالمعنى المراد، فيمكن التمثيل لها بالمخطط التالي:

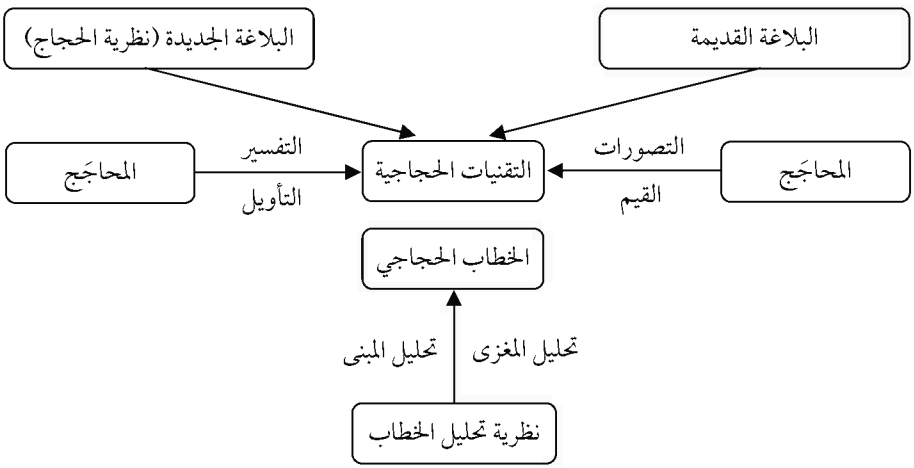

فأما الحجج الاتصالية؛ فهي الحجة شبه المنطقية (argument quasi-logique)(١٧١)، وفيها تعتمد منظومة من الطرائق الحجاجية مثل: التناقض والتماثل الجزئي أو التام والتعدية والعلاقات الرياضية مثل: الكل والجزء وعلاقة الأصغر بالأكبر وعلاقة التواتر(١٧٢)، والاحتكام إلى مبدأ المقايسة، مثل: إذا كان ذلك كذلك بأنه، فإن قال قائل، وأما الحجة المؤسسة على العلاقة التبادلية (argument de réciprocité)(١٧٣) ، فيقوم الإقرار بهذا النوع من الحجج على الإيمان بقانون العدل الذي تنتظم وفقه الأشياء، ويحتكم

(١٧١) l'empire rhétorique, p79.

(١٧٢) ibid. p87-90.et voir aussi ; Bruton, Largumentation dans la Communication,p97-98

(١٧٣) ibid, p92-97.

إليه الناس في سلوكهم وتصورهم، كقولنا: "الجزاء من جنس العمل"، فهذا مطلق العدل ودليل التحاجج الأعلى[١٧٤].

كما تعدّ حجة التعدية (Argument de Transitivité)[١٧٥]، من الحجج المنطقية التي تفضي بتجاور أطروحة أو دليل لأخرى؛ بناء على تفوقها القيمي، أو تساوي حاصل مع آخر بناء على الاستلزام المنطقي أو التجاور السياقي، إلا أن هذا النوع من الحجج يفقد سلطته التأثيرية والإقناعية إذا لم يدعم بالواقع المادي وتفريعاته العينية[١٧٦].

هذا وتتفرع الحجة شبه المنطقية الرياضية[١٧٧] إلى حجة تقوم على إدماج الجزء في الكل (inclusion) أو ما يمكن تسميتها بـ: الحجة الإدماجية التي ترشح أفضلية الكلي على الجزئي من حيث القيمة والاختيار. ومن الحجج شبه المنطقية ذات الأساس الرياضي ما يعرف بالحجة التفريعية التي تقوم على عرض الكل ثم أجزائه المكونة له، خاصة في سياق عرض الرأي اللغوي أو النحوي ونسبته إلى بعض من قال به من مدرسة أو اتجاه ما، والحقيقة أن الاعتماد على حجة التفريع يوقع المتلقي في الإبهام لرجال الرأي المعروض وتفريعاته المختلفة التي تبين في الحقيقة إلاّ قولا واحدا وعقيدة واحدة[١٧٨]، ومن هذا النوع حجة التشبيه التي يحتاج إليها المحاجج لتقويم حالة باعتماد حالة أخرى معروفة على سبيل المقايسة الضمنية أو الصريحة بينهما[١٧٩]،

---

(١٧٤)انظر: علي الشبعان، **الحجاج والحقيقة**، ص١٤٢.

(١٧٥) انظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته، ص٢٣٩-٣٣٠.

(١٧٦) l'empire rhétorique, p98.

(١٧٧) انظر: عبد الله صولة، الحجاج، أطره ومنطلقاته، ص٣٣١. وانظر: Bertrand Bufon, La parole persuasive,p153-155.

(١٧٨) l'empire rhétorique, p97-108.

(١٧٩) Chaim Prelman et Olbrechts Tyteca, Traite de l argumentation, p326-330

ومن الحجج المؤسسة لبنية الواقع التمثيل والاستعارة بوصفهما أداتين تسهمان في بنية العالم، وإنتاج أشياء جديدة فيه، بل واستنباط معرفة جديدة أيضا[١٨٠]، أو إكمال ما خفي منه من علاقات ضمنية بين مكوناته.

فأما التمثيل فلا تخفى أهميته في الاستدلال والبرهنة على ما يقوم من مشابهة بين علاقات تربط صورا مختلفة، من مثل تمثيل حالة متخذي أولياء من دون الله، وهو طرف الموضوع (Theme) غير المعروف بحالة العنكبوت التي اتخذت بينا واهنا، وهو الطرف الحامل (Fphore) المعلوم بالنسبة إلى المتلقي، في قوله تعالى ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ العنكبوت، الآية ٤١[١٨١]، فالمقايسة قائمة على إضافة أمر إلى آخر بنوع من المساواة[١٨٢].

كما اشترط **بريلمان** انتماء كل من الموضوع والحامل في التمثيلات إلى عوالم مختلفة، مما يكون له أثر في إغناء الصورة التمثيلية[١٨٣]، وفتح المجال أما المتلقي لكي يعمل تفكيره، باحثا عن أوجه الربط المضمرة بين الموضوع والحامل، وهنا بالضبط

---

(١٨٠) جورج لايكوف ومارك جونسون، **الاستعارات التي نحيا بها**، ص١٨٤.

(١٨١) سامية الدريدي، **الحجاج في الشعر العربي القديم**، عالم الكتب الحديث، ط١، إربد، سنة ٢٠٠٨، ص٢٤٢، وانظر أيضا كمال الزماني، **حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه**، عالم الكتب الحديث، ط١، إربد، سنة ٢٠١٢، ص١٢٥. وانظر أيضا: محمد الوالي، **الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية**، ص ٣٩٩. وقد ضرب عبد الله صولة هذا المثال القرآني في دراسته: **الحجاج، أطره ومنطلقاته**، ص٢٤٠.

(١٨٢) انظر: محمد عابد الجابري، **بنية العقل العربي، نقد العقل العربي (٢)**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٤، بيروت، سنة ١٩٩٢، ص١٣٨.

(١٨٣) Prelman,Tyteca, traite de l argumentation,p501-509

تكمن حجاجية التمثيل في عدم تمكن المتلقي الذي يستكشفه من النكوص عما وصل إليه هو من استنتاج بمحظ إرادته، فيخر مذعنا لسلطان الصورة المركبة[١٨٤].

إن حجاجية التمثيل تكمن أساسا في بناء بنية واقعية من خلال إيجاد أو إثبات أشياء انطلاقا من أخرى عن طرق تشباه العلاقات[١٨٥]، والقدرة على تمثلها ذهنيا بواسطة التخييل، يقول ابن رشيق: "والمثل والمثل: الشبيه والنظير، وقيل: إنما سمي مثلا لأنه ماثل بخاطر الإنسان أبدا، يتأسى به"[١٨٦]، وأما الاستعارة بوصفها تمثيلا مكثفا حذفت بعض أطرافه[١٨٧]، فلها تأثير كبير على الفعل الحجاجي من خلال فعل المطابقة الذي تحدثه بين الموضوع والحامل إلى درجة الانصهار[١٨٨]، تاركة هي أيضا للمتلقي مهمة

---

(١٨٤) 184 - ibid, p509

(١٨٥) انظر: علي محمد علي سلمان، **كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج، رسائله نموذجا**، ص ٢٦٣و٢٦٤.

(١٨٦) ابن رشيق، **العمدة**، شرح عفيف نايف حاطوم، دار صادر، ط١، بيروت، سنة ٢٠٠٣، ص٢٣٢. وانظر تعريفات بلاغية أخرى للتمثيل في: الجرجاني، **أسرار البلاغة**، ص١١٣ وأحمد مصطفى المراغي، **علوم البلاغة**، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، سنة ١٩٨٢، ص٢٦٨.

(١٨٧) يعرف الجرجاني الاستعارة بقوله: ***"اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الموضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم، فيكون هناك كالعارية"*** **أسرار البلاغة**، ص٣٠.

(١٨٨) انظر: محمد الواسطي، **أساليب الحجاج في البلاغة العربية**، ص١٤٩. و١٥٣. وانظر البنية الحجاجية القياسية للاستعارة في: شوقي المصطفى، **المجاز والحجاج في درس الفلسفة بين الكلمة والصورة**، دار الثقافة، ط١، الدار البيضاء، سنة ٢٠٠٥، ص ٢٣.

تأويل عناصر المشابهة بين المستعير والمستعار، فبمجرد التفكير في تلقين المخاطب صورة ما، فإننا نكون بصدد الحجاج[١٨٩]، وهذا يعني أن شكل الصورة إذ يحتوي على المحل الشاغر، فإن ذلك وحده يعني أن الأمر يتعلق بالحجاج، فهذا المحل ليس مجرد وسيط سياقي يبيح الاستنتاج، بل إنه حجة نريد استدراج المتلقي ليذعن إليها دون أن نطلب منه ذلك صراحة، فهي معنى جديد ونتيجة تأويله للتفاعل الحاصل بين المتلقي واللغة[١٩٠]، ولهذا السبب رُبِط بين القوة الحجاجية للملفوظات اللفظية من خلال استخدامها في صورة استعارية، أكثر من استخدامها في التعبير الحقيقي للمعنى[١٩١]، ولعل ذلك راجع أيضا إلى أن النسق التصويري العادي، الذي يسير تفكيرنا له طيعة استعارية بالأساس على حد قول **لايكوف وجونسون**[١٩٢].

وعلى صعيد آخر ربط بين الاستعارة في حجاجيتها بمفهوم الادعاء لقيامها على ترجيح المطابقة وترجيح المعنى وترجيح النظم، فيدخل من خلال تركيبها المشبه في المشبه به ليساويه في الصفة المشتركة بينهما[١٩٣].

---

(١٨٩) المرجع نفسه، ص١٣٢، وانظر محمد الوالي، **الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية**، ص ٤٦٩. وانظر: عبد الله صولة، **الحجاج أطره ومنطلقاته**، ص٣٤٢.

(١٩٠) انظر: حسان الباهي، **الحوار ومنهجية التفكير النقدي**، إفريقيا الشرق، ط١، الدار البيضاء، سنة ٢٠٠٤، ص ١٠٤.

(١٩١) انظر: ميشيل لوكيرن، **الاستعارة والحجاج**، ص٨٧.

(١٩٢) انظر: جورج لا يكوف ومارك جونسون، **الاستعارات التي نحيا بها**، ترجمة عبد المجيد جحفة، دار توبقال، ط١، الدار البيضاء، سنة ١٩٩٦، ص٢١.

(١٩٣) طه عبد الرحمن، **"الاستعارة بين حساب المنطق ونظرية الحجاج"**، مجلة المناظرة، عدد٤، سنة٢، ماي، سنة ١٩٩١، ص٧٠.

إن قـوة الصورة نابعة من ترتيبها العلوي في سلم الحجـج المنتقاة من لدن المتكلمين بخاصة إذا استمدت أطرافها التمثيلية من الصور الحسية المعروفة في عالم المتلقي[١٩٤]، والذي انتزعها من تجـاربه المـادية وممارساته المعيشة وسلوكه اليومي[١٩٥]، ولهذا تمتنع عن سهولة الدحض أو الرد من طرف المخاطبين، الذين يفشلون في تصور حجج مضادة بعد استعارة أو تمثيل إلا إذا كانت استعارات عكسية أو تشبيهات مضادة بخلاف التعابـير الحقيقية التي يسهل عليهم إبطالها ونفيها كلما سنحت لهم الفـرصة، ولذلك لا نجـد من الروابـط من مثل لكن وبل ما يمكن الاعتراض به بعد الصور المجازية الحجاجية[١٩٦]، أما الحـجة المؤسسة على بنية الواقـع (les arguments fondes sur la structure de réel) فمحصلتها التماهي بين الواقـع المـادي بتفاصيله والدعوى المطروحة على المتلقي[١٩٧]، وبقدر قدرة المحاجج على الربط بين القول والواقع يحصل قبول الدعوى، وتحققها في ذهن المتلقي الذي يعمل على الربط نفسه بين عالم القول الحجاجي وعالم الحقيقة المادية الذي يضحى مقياسا للتقويم تقاس به جدوى الحجة وفعلها المنجز[١٩٨].

---

(١٩٤) Prelman ,Tyteca, Traite de l argumentation , p89.

(١٩٥) انظر: عبدالله صوله، **الحجاج في القرآن الكريم**، ٢/ ٥٦٨. وانظر علي محمد علي سلمان، **كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج، رسائله نموذجا**، ص ٢٤٥.

(١٩٦) انظر: أبو بكر العزاوي، **اللغة والحجاج**، ص ١٠٩.

(١٩٧) ibid,p95-134

(١٩٨) Ibid. p109-134. Et declercq, l'art d'argumenter, op cit, p129-133."***ils procédent de liaisons entre les éléments du réel, plus exactement des liaisons dont l'auditoie adn l'existence entre tels et tels éléments du réël*** p129.

وقد تكون الحجج المؤسسة على الواقع وقائع أو حقائق ماضية، شكلت قانونا، يمكن سحبه على الموضوع الجديد[١٩٩] أو افتراضات ممكنة التحقق[٢٠٠]، ويقوم الاحتجاج بالواقع على استقراء مكوناته، وربما انتقل من حكم جزئي يخص طرفا منه إلى إصدار حكم كلي مقال له[٢٠١]، ومما يتصل بالحجة المؤسسة على الواقع ما عده **بريلمان** حجة نفعية تقيم العمل نتيجة السلبية أو الإيجابية، مما يعطي للحجة ذاتها نية توجيهية للسلوك الإنساني بعامة وسلوك المحاججين بخاصة[٢٠٢].

ومن الحجج أيضا حجة التبذير (l'arg.du gaspillage)[٢٠٣]، وحجة الاتجاه (l'arg.de direction)[٢٠٤]، إذ تتجه نحو عبارات الحسم والجزم بصحة الدعوى مثل: "وهذا هو الصواب الذي لا يوجد غيره"، ولعل استقراء نصوص **ابن حزم** الجدلية في كتابه الإحكام –مثلا– تدلل على قيمة اعتداده بهذا النوع من الحجج[٢٠٥].

وأما الاتصال التواجدي فيضمن قدرا أعلى من التوافق والانسجام بين الشخص والعمل الذي ينجزه، ذلك إن نجاعة الحجاج مرهونة بمواقف الشخص المحاجج أو من يستدعى رمزا كحجة ما في خطاب حجاجي يشكل عمل الشخص

---

(١٩٩) Bufon, la parole persuasive, p20

(٢٠٠) انظر: عبد الله صولة، الحجاج، أطره ومنطلقاته، ص٣٣٢.

(٢٠١) عن أهمية الاستقراء، ورفض تعميم الأحكام انطلاقا منه ينظر: محمد قاسم، **المنطق الحديث ومناهج البحث**، ص ٣٩، وقد عرض موقف كلودبرنار من الاستقراء وأهميته في النظر العلمي في كتابه الشهير: مقدمة لدراسة الطب التجريبي، القسم الأول، الفصل الثاني .

(٢٠٢) المرجع نفسه، ص٣٣٣.

(٢٠٣) المرجع نفسه، ص٣٣٣.

(٢٠٤) المرجع نفسه، ص٣٣٣.

(٢٠٥) ابن حزم، **الإحكام في أصول الأحكام**، مواضع متفرقة.

سياقا ضامنا له[٢٠٦]، ويقود الاتصال التواجدي بهذا المعنى إلى تحديد حجة السلطة (Argument d'autorité) سواء كانت شخصية مثل العلماء والقادة والفلاسفة والأنبياء أو كانت معنوية مواسية مثل الرأي العام، الإجماع، نظام الحكم، الإيديولوجيا المهيمنة، الطبيعة، الدين[٢٠٧].

وتعكس الحجة السلطوية الطابع الرسمي للقول الحجاجي، إذ تضفي السلطة قوة إنجازية بالنظر إلى مركزها الاجتماعي على القول أو الخطاب، بل إن قياس إنجازية القول منوطة بالجهة التي لها الحكم في إصدار الأوامر والإلزام بها، وبمعنى أدق تلك الأطراف التي تملك السلطة الفعلية، وإذا قالت فعلت، وهذا تمام ما يحدث في الخطابات السياسية الرسمية الصادرة في المؤسسة الحاكمة في بلد ما.

وبقدر قوة السلطة يمكن أن نقيس فعالية ونجاعة الأوامر والتوجيهات والقرارات والإعلانات والقوانين الملزمة، ومدى تحققها الفوري في حياة الناس. إن الطاقة الحجاجية للأعمال اللغوية مرتهنة بشروط التواصل الاجتماعي وقواعد البروتوكول المقترن به، والتي توجه الخطاب إلى دائرة السلطة والفعل الإلزامي، ولعل هذا النوع يكثر استحضاره في المجال العلمي الذي يحيل دوما إلى التجدد والتغير والاكتشافات المستمرة.

ولنا أن نتصور أشكال هذه الحجة التي تمارس أحيانا نوعا من العنف الإقناعي في بعض الخطابات ذات الوجه الأمري أو الدعائي لتسلب المحاجَج القدرة على التركيز والتبين؛ فيقع منهزما أمام حشد من الأسماء العلمية أو التاريخية التي يصعب تكذيبها عند عامة الناس، ومن الحجاج بالسلطة ما يعرف بالحجة الدينية التي تظهر بقوة في الخطابات الدينية بشكل أساس، وقد توجد بشكل مواز مع حجج أخرى في

---

(٢٠٦) المرجع نفسه، ص٣٣٣.

(٢٠٧) Perelman, l'empire rhétorique, p123-124.

أنواع خطابية مختلفة بصورة مباشرة، معتمدة طريقتين لتحقيق قوتها المعرفية هما التناص والافتراضات المسبقة[٢٠٨].

ولعل من أمثلة الحجة الدينية مما يمكن التمثيل به إيضاحا؛ بما عرض له "أبو حيان" في إحدى نصوصه الإقناعية التي رام بها المفاضلة بين النثر والشعر منتصرا للأول على الثاني، يقول: "***إن النثر أصل الكلام والشعر فرعه، والأصل أشرف من الفرع، والفرع أنقص من الأصل لكن لكل واحد منهما زائنات وشائنات، فأما زائنات النثر فهي ظاهرة لأن جميع الناس في أول كلامهم يقصدون النثر، وإنما يتعرضون للنظم في الثاني بداعية عارضة، وبسبب باعث وأمر معين، ومن شرف النثر أيضا أن الكتب القديمة والحديثة والنازلة من السماء على ألسنة الرسل بالتأييد الإلهي مع اختلاف اللغات كلها منثورة مبسوطة، متباينة الأوزان متباعدة الأبنية مختلفة التصانيف لاتنقاد للوزن ولا تدخل في الأعاريض ومن شرفه أيضا أن الوحدة فيه أظهر وليس كالمنظوم داخلا في حصار العروض وأسر الوزن وقيد التأليف، مع توقي الكسر واحتمال أصناف الزحاف***"[٢٠٩].

لقد ارتكزت حججه المرتبة ترتيبا سلميا بناء على قوتها الإنجازية على حجة محورية تمثلها ارتباط النثر غالبا بالكتب السماوية المقدسة، وكأنه يستمد مكانته ومشروعيته من قوة علوية مقدسة، هي قوة التأييد الإلهي على حد قوله، ناهيك عن اعتماده الحجة التاريخية، فاللغات نشأت في مبدئها منثورة مبسوطة، وهذا أدى إلى عدّ

---

(٢٠٨) انظر: عبد الله الحراصي، "**مظاهر التفاعل بين اللغة والسياق الاجتماعي**"، مجلة نزوى، سلطنة عمان، عدد٢٤، أكتوبر، سنة ٢٠٠٠، ص٧١.

(٢٠٩) التوحيدي، **الإمتاع و المؤانسة**، تحقيق، أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، دت، ط٢/ ١٣٢-١٣٣.

النثر أصلا أصيلا لكل قـول إبداعي لاحق، أما الخصائص الشكلية ذات الاتصال الوثيق باللغة من حيث هي أبنية وأوزان ودلالات فمن شأنها أن تميز بين النوعين، وتجعل أحدهما انزياحا نظميا عن الثاني، وبمعنى أكـثر ظهورا الشعر انزياح لغـوي وشكلي عن النثر، يمتاز بالتكثيف الدلالي والإيقاع الموسيقى المؤثر، سواء كان موزونا على عروض ما أو لم يكن كذلك(٢١٠).

كما تبسط اللغة باعتبارها حجةً سلطةَ نفوذها على أنواع الخطابات المختلفة، وتعلو كلمتها في الخطاب التعليمي الذي يتوسل الشرح والتفسير والتمثيل اللغوي ففي تحليل الخطاب الأدبي -مثلا- يبنى المسار التأويلي في مستوى وصف الأبنية اللغوية على المعطى اللغوي بمكوناته الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية انطلاقا من المسموع من كلام أبناء اللغة وتداولهم لها في السياقات المختلفة، مما يحقق للغة وظيفتها المعجمية الشارحة التي عرفها لها رومان جاكبسون(٢١١).

وتتحقق هذه الوظيفة في التفسير اللغوي للقرآن من خلال الركون إلى دلالات المفردات الوضعية، واستعمالاتها السياقية المختلفة في النثر والشعر والتأكد من الفروق الدلالية القائمة بينها تبعا لذلك(٢١٢)، كما تنبسط الحجة اللغوية في سياق الجدل أو التعليم

---

(٢١٠) انظر: أدونيس، **مقدمة للشعر العربي**، دار العودة، ط٣، بيروت، ١٩٧٩، ص١١٢.

(٢١١) عن الوظيفة المعجمية الشارحة (أو الميتالغة) ينظر فاطمة الطبال بركة، **النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون**، كما ينظر: رومان جاكبسون، **قضايا الشعرية**، ترجمة محمد الولي ومبارك حنوان، دار توبقال، الدار البيضاء، سنة ١٩٨٨، ص ٢٦-٣٣.

(٢١٢) التفاسير اللغوية في التراث العربي كثيرة ومتعددة منها ما ينحو منحى الدلالة ومنها ما يركز على المجاز رافدا للمعنى لا غنى عنه، ومنها ما يعتمد ظاهر اللفظ وعلاقاته التركيبية والمعجمية، ومن أمثلة ذلك، مجاز القرآن لابن قتيبة، معاني القرآن للفراء، والكشاف للزمخشري، زاد

على مساحة واسعة من التعريفات اللغـوية الاشتقاقية، تروم إقناع الآخر بصحة الاختيار اللغوي، ففي أغلب المقدمات النصية التعليمية يرجـع إلى الأصل الاشتقاقي للفظة المعينة توطئة لتحديد معناها الاصطلاحي الفني فـي جهاز المفاهيم والتصورات المشتركة.

وهذا ما يعرف بالحجة الايتيمولوجية (Argument Etymologique)[٢١٣]، ويتصل بهذه الحجة في أغلب استعمالاتها حجة قائمة على مبدأ الفصل المفهومي، أي اعتماد المحاجج تعريف المفاهيم (Notion) الأساسية التي تقوم عليه محاورته للآخر في سبيل تقريب الدعوى إليه، وتأسيس لغة علمية مشتركة، تساعد الطرفين على الحوار.

إن **الاحتجاج باللغة** في الحقيقة بعدا فلسفيا وعقديا يتعلق بطبيعة النشأة اللغوية في حياة الإنسان، فاللغة عند فئة من الناس قديما وحديثا كائن مخلوق موقوف من الخالق، تأخذ من طبيعة هذه الخلقة الإلهية الانتظام والثبات والصفاء والقدسية؛ مما يؤهلها لأن تكون حجة الخالق على المخلوقين، وحجة الأنبياء على الأتباع، وحجة الكون الصامت على الإنسان الناطق، *فالعالم الصغير سليل للعالم الكبير*، وهي بالنسبة إلى آخرين وضع واصطلاح بشري يحيل إلى التغيير والتجدد، وقداستها المكتسبة نتاج أثرها الحضاري في الوجود الإنساني، ولهذا السبب ستكون أيضا عند هذه الفئة حجة الحجج التي يتقوم بها الاستدلال، ويتعرف بها على الكون.

وأما الفئة التي أنشدت العمل اللغوي إلى الطبيعة فقد بالغت بحشر المحاجِج في سياقات الإقناع المتعددة لونا من الحجج المتوسلة إلى السلطة كيانا فاعلا في الواقع، ومؤثرا في صيرورة الأحداث، سواء كانت السلطة فردية أو اجتماعية مادية ممثلة في

المسير لابن أبي السعود، روح المعاني للألوسي، التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور، وغير ذلك يمكن مراجعة ذلك في: الذهبي، التفسير والمفسرون، مواضع متفرقة.

(٢١٣) انظر: علي الشبعان، **الحجاج والحقيقة**، ص٢٧٩-٢٨٠.

شخص ذي أخلاق على الحقيقة أو شخصا معنويا ذي أثر رمزي مثل النص الديني أو الإجماع على رأي ما، فمفهوم الحجاج بالسلطة متحصل من مستجدات المواقف والأفكار الاجتماعية المؤطرة لقيمة السلطة نفسها وعلاقتها بالمتلقين من حيث معتقداتهم ورؤيتهم للكون والعالم[٢١٤].

والحقيقة أن هذا اللون من الاحتجاج ينزع نزعة تبريرية قد تكون مغالطية إلى حد ما بانتهاك للخصوصية الفردية ومبدأ الاختيار الإنساني بوصفه كائنا حرا في الأصل؛ إذ تقيد سلوكه وتجعله تابعا لسلك ذات مركزية مسيجة بهالة من التمجيد والتقديس تتحكم في سلطة الأمر والنهي، ولعل الاستناد إلى هذه الإستراتيجية قائم بشكل بيِّن في الخطاب التربوي الذي ينزع إلى توجيه الناس نحو سلوك ما تحت تأثير القدوة التي تحشر سلوكات الأفراد الآخرين في زاوية ضيقة لتحل محلها باعتبارها سلوكات موضوعية إيجابية لا بديل عنها لتحقيق الصلاح والكمال.

أفضى الدرس الحجاجي الحديث في تعيينه لحجاج السلطة إلى تمييز أشكال متعددة لها (السلطة) في ضوء التغيير الثقافي الاجتماعي، فقد يعتمد المحاجج سلطة العقل باعتباره مرجعا أوليا عند طوائف كثيرة تحتكم إلى نفوذه وتنزله منزلة أسنى في سلم الحجج الإنسانية[٢١٥]، وتمد سلطة العقل على مساحة واسعة من الاحتجاج اللغوي البلاغي تنزوي معها تدريجيا سلطة أخرى كالسماع وما تحيل إليه من ارتكان إلى

---

(٢١٤) Buffon, p191-194.

(٢١٥) شهد الفكر الإسلامي جدلا عميقا حول مقولتي النقل والعقل، وترتب عن هذا الجدل ظهور فرق تتمركز خطابها السياسي والثقافي حول النظر والاستدلال العقلي مثل المعتزلة والأشاعرة وأخرى تشيد النقل وتجعله مصدرا للمعرفة والحقيقة، وهؤلاء يعرفون بأنصار الأثر من جمهور الفقهاء والمحدثين، انظر هذا المعنى في: نصر حامد أبو زيد، **الاتجاه العقلي في التفسير**، ص٢٤١ وما بعدها.

الدلالة الحرفية للألفاظ دون نظر في سياقاتها الثقافية وإمكاناتها التأويلية والرمزية، كما تضعف سلطة الإجماع في نظر العقلانيين بحكم افتقاره إلى الاستقصاء التام، واستحالة الاجتماع في الزمان والمكان.

ولعل هذا الاتجاه هو نفسه ما نقرأه في بعض مقولات المفكر الظاهري **ابن حزم الأندلسي** بسياق مخالف فلا إجماع إلا ما عضّد بدليل نصي قرآني، مما يعني ضمانا لاستمرارية سلطة التجويز العقلي[٢١٦]، وتتعضد حجة العقل باعتبارها سلطة مهيمنة على من يؤمن بالعقل مخرجا للحقيقة بسلطة اللغة من حيث هي أداة تحديد معنوي، ووسيلة أساسة لتأطير الفكر والنظر إلى الكون وتفاصيله، ولعل الخطاب اللغوي الواصف الذي ينجزه المتكلم في سياق عرضه لموضوع ما يمثل احتجاج على صحة الفكرة حشدا لأقوال اللغويين المساندة للفكرة ضرب من ضروب سلطة اللغة على المحاجَجين الذين تتأسرهم سطوة اللغة النافذة، فإن أنكر المنكر حجة العقل أو حجة النقل فإنه لا يستطيع إنكار حجة اللغة لأنها باختصار تمثل وجوده الإنساني لما تقوم به من دور أساس في عملية التفكير ذاته، والتعبير عنه بالعلاقات اللسانية الضرورية والتي غدت في الفكر الفلسفي واللساني الحديث العتبة الأساسية للنفاذ إلى المعنى والحقيقة[٢١٧]، من خلال إسناد قوة التأثير إلى العلامة اللغوية التي هي علامة طبيعية أولية تعبر عن الموجود

---

(٢١٦) نعمان بوقرة، **تفسير النصوص وحدود التأويل عند ابن حزم الأندلسي، قراءة في أعراف الفهم الظاهري للخطاب القرآني**، أمانة عمان الكبرى، مطبعة الروزانا، ط١، سنة ٢٠٠٧، ص٢١.

(٢١٧) عن تصور العلاقة بين اللغة والفكر باعتبارها أداة له لا يكون إلا بها من ناحية، وباعتبارها حجة الحجج من ناحية ثانية، ينظر: نصر حامد أبو زيد، **النص والسلطة والحقيقة**، ص٢١٣ وما بعدها.

الطبيعي المادي، فلا يكون مفهوم المحاكاة -هنا- إلا ضربا من ضروب تأكيد تطابق العالمين الصغير والكبير[٢١٨].

ولا تنفك حجة اللغة عن الحجة المؤسسة على علاقة التشابه (ressemblance) ذلك إن هذه الأخيرة تمتح من اللغة مادتها، وتصوغها في شكل أمثلة وشواهد تؤدي دورا إيضاحيا في أغلب الأحيان، مع ما تقضي به من تأكيد الأطروحة، وغرسها في لب المتلقي[٢١٩]؛ فقد يلجأ إلى الاستشهاد بالأحاديث النبوية والأمثال السائرة والمراجع اللغوية والأدبية المتضمنة للفكرة أو الرأي، ناهيك عن الشواهد التفسيرية والنبوية والقرآنية التي تحشر عادة في الخطابات الدينية في مناسبات معينة، والتي تقوم رأسا على انسجام القيم المشتركة بين رأي المتكلم وأفق المتلقي.

ويمثل المخطط التالي أهم ما يمكن تمييزه من حجج سلطوية دائرة في الخطابات:

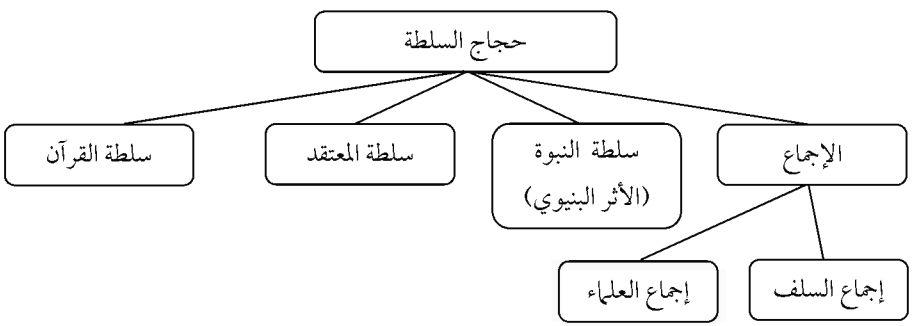

(٢١٨) عن هذه التوجهات الباسطة لمسألة النشأة اللغوية ينظر ابن جني، **الخصائص**، كما ينظر توسعا: نعمان بوقرة، **التفكير اللساني عند ابن حزم الأندلسي**، مخطوط أطروحة، دكتوراه دولة في اللسانيات بجامعة عنابة سنة ٢٠٠٣/ ٢٠٠٤، ص٥٠ بخاصة فصل نشأة اللغة.

(٢١٩) من الشواهد الاعتماد على التفاسير والأحاديث والآيات القرآنية والأمثال والحكم التي تنبض بدلالات التأكيد والحصر.

كما تنتظم مجموعة من الحجج في سياق ينظم بنية الواقع، ويشكلها وفق رؤية وتجربة معينة يعاينها شخص أو مجموعة من الأشخاص، ذلك إن الحجاج الناجح في الحقيقة أداة لبناء الواقع الجـديد الذي يكون العالم المقصود للمحاججين، ولعل أهم ما يندرج في هـذا الإطـار الحجاجي حجة الأنموذج وعكس الأنموذج[٢٢٠]، ويوضح الجدول التالي استحضار الخطاب الحجاجي لحجتي النموذج/ عكس النموذج، ضمن جدلية خلافية تبين تعارضات الأشخاص ووظائفها وأهدافها المذهبية[٢٢١]:

الأنموذج		عكس الأنموذج
المحاجِج الرسول	⟷	الأنبياء المحاجَج
المؤمنون	⟷	الكفار
المتدينون	⟷	غير المتدينين
العلماء	⟷	الجهلاء
النقل	⟷	العقل

بالإضافة إلى المثل والحكمة والشاهد بأنواعه الشعرية القرآنية والحديثية، فأما المثل (l'exemple) فيمثل الوحدة الحجاجية الصغرى في الخطاب الحجاجي من حيث كونه مثالا مسوقا في سياق عرض حجة ما، وهو إما أن يكون واقعيا أو صناعيا،

(٢٢٠) عبد الله صولة، مرجع سابق، ٣٣٧-٣٣٨.

(٢٢١) كما يمكن الحديث عن نماذج مجردة باعتبارها أنساقا عليا للاحتجاج مثل: الموت/ الحياة، الحق/ الباطل، الأثر/ النظر، الكامل/ الجزئية، القرآن/ الكتب السماوية، الحقيقة/ المجاز، الخطاب/ الرمز، الرذيلة/ الفضيلة، النظام / الفوضى، مما يعني أن الخطاب الحجاجي يروم استبعاد نموذج معاكس لصالح التمكين للنموذج المعين الذي يؤثر دائما إلى النية الموجبة التي تضفر بالقبول لدى المتلقين.

ووظيفته تحقيق الصفة اللزومية للوقائع كما مر بنا، وربما اختلفت الوحدة الحجاجية ذاتها في قيمتها الحجاجية بحسب السياق التي توظف فيه فهي رهينة قصد المتكلم وحالته النفسية ووضعيته الاجتماعية، فيمكن أن يكون مقدمة لنص حجاجي يدافع عن رؤية مذهبية معينة، كانفتاح النص الروائي الشهير للطاهر وطار الجزائري بمثل شعبي دارج في الثقافة الجزائرية يوافق في دلالته العامة "ما كان لله دام واتصل وما كان لغيره زال وانفصل"، وهو قول بطل الرواية **"ما يبقى في الواد غير حجاره"**.

وقد يندرج المثل بوصفه بنية حجاجية جاهزة، في بنية الحجج المتوالية ليضع توافقا بين الرؤية والسياق الخارجي، وثقافة المخاطبين بتأسي قاعدة انطلاق فكري للطرفين، كما يعكس حضور المثل فصيحا كان أو عاميا تمركز الثقافة الشفوية في الذاكرة العربية بوصفها مصنعا لإنتاج المعرفة والخبرات المتراكمة وبلاغة الكلمة ذاتها، متمركزة حول هذا البعد الشفوي، الذي تهيمن عليه الأمثال، وتمتد سلطتها الإقناعية على فضائه الدلالي.

إنّ الغاية من اعتماده هو التأسيس للقاعدة، والبرهنة على صحتها، ضمنيا من خلال ما تضمره بنية المثل من دفاع عقلاني عن رؤية ما بالتخييل والتمثيل[٢٢٢]، والمثل قد يكون مثالا واحدا أو مجموعة أمثلة، وللمثل قيمة حجاجية معتبرة في التراث العربي فقد أشاد بأهميته ابن وهب الكاتب في البرهان: "..وإنما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها والمقدمات مضمومة إلى نتائجها ...والمثل مقرون بالحجة"[٢٢٣].

---

(٢٢٢) انظر: محمد علي القارصي، **من مظاهر الاحتجاج**، حوليات الجامعة التونسية، عدد٤١، سنة ١٩٩٧، ص ١٥٤ بتصرف.

(٢٢٣) ابن وهب، **البرهان في وجوه البيان**، ص ١٦-١٤٧.

يقول الزمخشري في التمثيل: "..**حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه الشاهد**"(٢٢٤) . ويضاف للمثل في حجيته الحكمة أيضا من حيث كونها صيغة نظمية يقتضيها سياق الكلام في الأغراض والموضوعات المتنوعة، مقصودا بها التأثير والاستدلال والإقناع، وهي أنواع، فمنها الحكم الدينية والاجتماعية والسياسية، وغيرها، وأما الاستشهاد فناهيك عن كونه شكلا معبرا عن تعدد الأصوات في الخطاب الواحد، فهو يضطلع بتوضيح الدعوى، وتكثيف حضورها الفكري في الذهن(٢٢٥)، لما للشواهد من قدرة مميزة على تجاوز التنازع والاعتراضات، والحمل على التسليم(٢٢٦)، وربما كان الاستشهاد أداة لتحويل القاعدة من طبيعة مجردة إلى أخرى محسوسة، وذلك لقيامه على الاستقراء أصالة، حيث تمثل فيه العلاقة بين الجزئي والجزئي والمثيل ومثيله(٢٢٧).

ولعل القرآن الكريم فيما يقدم لنا من أمثلة حجاجية أهم مصدر لهذا الشكل الحجاجي(٢٢٨)، كما يجنح المحاجج في سياق الخطة الدينية إلى الاستشهاد بالأحاديث النبوية بوصفها حجاجا بالسلطة المقدسة عند المسلمين، ممثلة في مبلغ الرسالة الرسول صلى الله

---

(٢٢٤) الزمخشري، الكشاف، ٣/ ٢١٨.

(٢٢٥) Alain Boissinot, les textes argumentatifs ,Midi-Pyrennes ,1994,p24-25.

(٢٢٦) انظر: محمد العمري، **في بلاغة الخطاب الإقناعي**، دار الثقافة ،ط١، الدار البيضاء، المغرب، سنة ١٩٨٦، ص٩٠.

(٢٢٧) انظر: عبد الجليل العشراوي، **الحجاج في الخطابة النبوية**، عالم الكتب الحديث، ط١، إربد، سنة٢٠١٢، ص٢٤.

(٢٢٨) صلاح فضل، **بلاغة الخطاب وعلم النص**، ص ١٠٠، وانظر أيضا: حمادي صمود، **التفكير البلاغي عند العرب، مشروع قراءة**، حوليات الجامعة التونسية، سنة ١٩٨١، ص ٣٤.

عليه وسلم، ويبدو أن الاحتجاج بالحديث يعكس مقام الثقافة الشفوية في بناء النص الحجاجي العربي، ويوطد أركانه البيانية، قصد تحصيل المعرفة والدلالة والاعتقاد[٢٢٩].

كما إن العناية بالاستشهاد القائم على التمثيل مقيد بجملة من القيود لعل أهمها؛ عدم إطنابه، وفي سياق الحديث عن الاستشهاد نود الالماع إلى أنه من حيث تمثيله قيمة في حد ذاته مستنبط مما يفعله الناس أو يقولونه يمكن أن يطابق الواقع، وربما كان افتراضيا، كما أن هـذه القيمة التي يعبر عنها الشاهد يمكن أن يصرح بها وهـذا هو الغالب، وربما وردت ضمنيا تستخلص من جملة المقدمات والمبررات المنظمة للخطاب، كما يقوم تحديد مهم للقيمة المستدل بها على سمة الشمولية فالحجة الأقوى هي الأكثر شمولية في قيمتها الاجتماعية[٢٣٠]. فإذا كان الشاهد قرآنيا- مثلا- فإن لهذا النوع سلطة غير شخصية، من جهة تمثيلها للعقيدة والكتاب المقدس لعموم المسلمين، لذا يشكل محط إجماع عام.

إن اندماج الحجة بالشاهد والمثل والحكمة يقوي الطاقة الحجاجية للحجاج باعتباره عملا لسانيا فـي أساسه الأول عـلى أن لا يكثر منه المحاجج حتى لا يملل السامع الذي تطوق نفسه أحيانا إلى تجاوز الأمثلة إلى الوصول إلى الغاية المنشودة، إذ الغاية في الحجاج ليست الحجج ذاتها أو الإكثار منها بقدر ما يرتبط الفعل بالأسلوب أو الطريقة التي يبتغي بها المحاجج إيصال أطروحته للناس[٢٣١].

وفي إطار الحجاج نميز حجة ذات وجه استهجاني، يتم بها إبطال دعوى الخصم باستهجان موقفها وتحقير قصورها الصادر عن قلة خبرة ودراية بمقتضيات الأمور

---

(٢٢٩) انظر: محمد القاضي، الخبر، ص ١٤٧-١٨١-٣٠٣ .

(٢٣٠) محمد العبد، **الخطاب الحجاجي، دراسة في وسائل الإقناع**، ص٥٤.

(٢٣١) Golder caroline, le développement des discours argumentatifs, p33-78-100.

وسريان الأحداث، إن وجاهة الحجة مرتهنة بما ينسب إليها من صفات إعلاء ووثوقية من طرف المحاجِج، كما أن استهجان الحجة المضادة يرمي بها في سلة الإنكار والرفض من قبل المحاجَجين[٢٣٢].

أما حجاج الإذعان (argumentation adbaculun)[٢٣٣]، فيكون بالترهيب والتهديد والوعيد القولي والفعلي بأفعال لغوية تحقق الإذعان، وتمارس نوعا من الغضب على المتلقي الذي لا يلبث أن يستسلم خاضعا لإرادة المعنف، ويمكن التمثيل لهذا النوع من المحاججة المغالطة للعقل ربط بعض التيارات السياسية في الاستحقاق الانتخابي الاقتراع والاختيار بالدين، في شعار ترفعه في حملتها الدعائية "صوتكم تسألون عليه يوم القيامة" مما يقضي باستجابة الدعوى من شخص مؤمن بالحساب، ويطمح في الجنة فيستوي في نظره الموقف الدنيوي والموقف الأخروي، دون أن يدرك ما في هذا الملفوظ من خرق لآداب المحاورة، من جهة، ولما فيه من مغالطة وصفية من جهة أخرى، فإذا كان الصوت شهادة، فيجب أن تكون الشهادة مخلصة وصادقة، ترتبط بالحق في شخصية معنوية تعدل، وتستأمن، وليست في مذهب بعينه، وأشخاص معينين ،وتقترب حجة التجهيل (l'argumentation par l'ignorance)[٢٣٤]، من هذا النوع مقدَّمة في سبيل إضعاف قوة الرأي المضاد على رسم حاجته بالجهل والزعم والظن وتهافت الفكر، قصد صرف السامع عنه، وتحويل وجهته السماعية والعقلية والعاطفية إلى المحاجِج فقط. ومن هذا النوع يستمد جدل ابن حزم –مثلا– قوته التأثيرية، يقول أبو محمد: ***"...ونعكس عليهم سؤالهم هذا السخيف الذي صححوه، فهو لازم لهم***

(٢٣٢) محمد النويري، **الأساليب المغالطية**، ص٤١٣-٤٢٢.

(٢٣٣) المرجع نفسه، ص٤٢٦-٤٢٩.

(٢٣٤) انظر: عبد الله صولة، الحجاج، أطره ومنطلقاته، ص٣٢٤.

لا لنا إذ لم نصححه، ونقول لهم: بأي شيء يدل الأمر على أنه على الوقف أبنفسه أم بدليله ؟ فإن قلتم بنفسه، ففي ذلك اختلفنا، وإن كان بدليله، فإذا لم يدل هو فدليله أحرى أن لا يدل، فمن أحمق استدلالا ممن دليله عائد عليه!"[٢٣٥].

إن وسم الآخرين بالتجهيل يضم بين طياته نفيا للآخر، ورفضا لمبدأ الحوار والجدل ذاته، لاغيا تعدد الأصوات ودمجها في صوت واحد له سلطة التوجيه والتعليم والسيطرة، كما أن اعتماد هذه الحجة يسم طرفا من المحاجَجين بالوثوقية والاستقامة والانتخاب في مقابل طرف آخر يمتاز بعكس الصفات السالفة. ومن الحجج المغالطة أيضا ما قام على مخالفة الحقيقة الواقعية في الاتصال، وما تقتضيه من وجود في الزمان والمكان، ممن مثل ما ينسب إلى أبي يزيد البسطامي المتصوف من قول: "أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا من الحي الذي لا يموت، يقول أمثالنا: حدثني قلبي عن ربي، وأنتم تقولون: حدثني فلان، وأين هو؟ قالوا: مات، وعن فلان، وأين هو؟ قالوا: مات، فاسم الفقيه أولى بهذه الطائفة من صاحب علم الرسوم"[٢٣٦].

وأما الطرائق الانفصالية (la dissociation des notion)[٢٣٧]، فتقوم على إنتاج نسقين حجاجيين متعارضين ومتقابلين في الظاهر، ولكنهما يشكلان بهذا التقابل الحجة الأوثق التي تبرهن عن صحة الرأي وتدحض في الوقت ذاته الرأي الآخر، كما يقوم الفصل في الحجاج على الانتصار الظاهر لفكرة ما تعرض حجج عليها مع إضمار الانتصار للرؤية الوجودية والخلفية الثقافية التي يصدر عنها المحاجِج[٢٣٨].

---

(٢٣٥) ابن حزم، **الإحكام في أصول الأحكام**، ٣/ ٩.

(٢٣٦) جولدتسيهر، **مذاهب التفسير الإسلامي**، ص٢٤٨-٢٤٩.

(٢٣٧) L'empire Rhétorique, p159-171.

(٢٣٨) انظر: علي الشبعان، **الحجاج والحقيقة**، في سياق عرضه لأسس التفسير الأثري عند الطبري، وكيف اصطنع الخطاب التفسيري عالمين أحدهما ظاهر يدافع عن التفسير الأثري الوحدوي

إن طريقة الفصل تعمق في العادة الخلافات المذهبية والإيديولوجية، وتقسم الرؤى إلى رؤيتين رسمية سياسية وأخرى شعبوية منفلتة أو متأثرة، ولنا في خطاب الإعلام ما يؤكد هذا الانفصال الحجاجي بين أنصار الخطاب الإعلامي الثائر، وأنصار الخطاب الإعلامي الرسمي أو ما يسمى إعلام المؤسسة، والإعلام الثاني أو إعلام الفتنة السياسية(٢٣٩).

وأما الحجة الوظيفية فتتأسس على مبدأ التجربة والترابط الحاصل بين السبب والنتيجة المعاينة في الواقع، وقد ذهب بيفون إلى توزيع هذه الحجة بحسب طبيعة بنية الحقيقة إلى مثيلتها أو شبيهتها انطلاقا من اندراجها في الجنس نفسه والطبيعة ذاتها أو أن يحدث العكس، مما يعني بالضرورة التمييز بين الحجة التتابعية من حيث إنجازها لحجة سببية عقلية تروم البرهان غاية لها.

ويكنز هذا النوع من الحجج في الخطابين العلمي والفلسفي، كما يمكن أن تؤسس عليه خطابات أخرى منزعها إلى تفسير الحقائق الاجتماعية والقيم الأخلاقية سالبة أو موجبة(٢٤٠)، ولعلنا نجد له حضورا مكثفا في خطابات التحقيق الجنائي والمرافعات القضائية التي تحشر ضمن أدلة الاتهام مبرراته، ودوافع الجريمة، أما الحجة التتابعية النفعية (argument pragmatique) فمسلطة على نجاعة النتيجة ونفعيتها

وثانيهما باطن يشرع لتصور الدولة "الحاكم ظل الله في الأرض" المالكة للحقيقة والمسيطرة على الإيمان فيغدو هذا التفسير ومخرجاته حتمية فكرية وثقافية يحمل عليها الناس أمنا لدينهم ودنياهم، ص١٨٥ وما بعدها.

(٢٣٩) راجع هذه المعاني عند عبد الجواد سيف، **السلطة في الإعلام**، ص١٣-١٤.

(٢٤٠) Buffon, la parole persuasive, p178-199. "***l'argument de causalité vise à rttacher l'un l'autre deux événements plus précisément un événement étant donné, il cherche à établir la cause on l'étfet qu'un résultes".***

بالنسبة للمحاجَج، وبقدر تحقيقها للمقبولية المادية تكون حجة قوية يعتد بحجاجيتها الخطابية[٢٤١].

ومما يندرج أيضا ضمن الحجة التتابعية ما يعرفه **بيفون** (buffon) بـ: حجة الاتّجاه (l'argument de direction) ومؤداها نقض الحجة المطروحة بما تؤول إليه في نتائجها المضطربة، مما يولد لدى المحاجَج رغبة في رفضها واطّراحها لهذا السبب، ومثال ذلك أن يسرد المحاجِج في سياق إنكاره على المتشددين الإفراط في فهم الاختلاط وتفسيره أثريا فصول حادثة مأساوية أودت بحياة تلميذة امتنعت إدارة المدرسة عن السماح لرجال الحماية المدنية لإسعاف المصابة لأن اللوائح تمنع الاختلاط بين الرجال والنساء، فأنت -كما ترى- الكاتب في سبيل احتجاجه على التفسير الأثري الخاطئ للاختلاط في نظره سلك مسلك نقض الموقف بما آلية إليه من ضرر تعدى جانب المنفعة التي يفترض أن يحققها.

أما ما يضمره هذا النقد التهكمي في سياقه البلاغي والاجتماعي فهو رفض التفسير السطحي للنصوص الذي لا يولي أهمية لمنطق اللغة التي شكلت النصوص ذاتها في سياقها الثقافي الاجتماعي ناهيك عن كونه تفسيرا يروض العقل، ويحجم دوره الإيجابي في الدائرة الإيمانية التي لا تكترث إلا بظاهر اللفظ، والعادة التي يصطنعها البعض بعيدا عن روح الدين الإيجابية.

إن الحجة الاتجاهية تتحول في حقيقة الأمر إلى إستراتيجية دفاعية عن سلطة العقل النافذ إلى حقائق الأشياء في ضوء تقلبات العصر في كتابات الكاتب وردوده على من يراهم مأسورين بسلطة النص والعادة لا يتجاوزونها إلا بقدر أنملة تعيدهم

---

(٢٤١) Ibid, p179. ويمكن التدلال عليها بما يعرضه المحاجج من مزايا الفعل أو الشيء إظهارا لصحته ونجاعته وضرورة الإقبال عليه.

إلى نقطة الاعتراض الأولى التي تسيج النص بسياج أثري يغلق دلالاته وينزع عنه سمة التاريخية في مستوى القراءة والتأويل[٢٤٢]، إنه في المبدأ نزاع حول الحقيقة، حقيقة يزعم كل طرف امتلاكه لناصيتها من خلال الحجة نفسها. كما يسعى الخطاب المعين إلى خلخلة التصورات التقليدية التي تحدد سلوك الأفراد والجماعة من خلال تجاوز تفسيرهم الدارج إلى تفسير جديد ينهض بأعباء المرحلة القادمة من خلال استشراف مستقبل المجتمع وتحريضه على روح التقدمية التي لم يعد منها بد للرجوع عنها إلى الوراء بكل ما تحمله وتمثله هذه اللفظة من دلالات رمزية اجتماعية وثقافية سالبة[٢٤٣].

هذا ويحفل هذا الخطاب بنوع آخر من الحجج يعرف في الدرس الحجاجي المعاصر بـ: الحجة التواجدية التي تتأسس على تفاعل العناصر وفق قانون عام يجمعها وينظمها، ومن صور ذلك ما يصطنعه المحاجِج من سلوك وما يظهر به من صورة تتطابق مع الملفوظ حالا[٢٤٤] يوحي بها إلى المحاجَج كأنه على درجة كبيرة من الصدق والتوازن في القول والعمل.

وكلما كانت صورة الشخص كاملة كان الحجاج أكمل، والعكس، وما هذا إلا لأن الناس ينشدون إلى حجية العمل أكثر من تأثرهم بالقول ذاته بخاصة في تلك

---

(٢٤٢) انظر: نصر حامد أبو زيد، **الاتجاه العقلي في التفسير**، ص١٧٣ وما بعدها، وانظر: علي الشبعان، **الحجاج و الحقيقة**، ص٢٨٨ –الهامش رقم ٣.

(٢٤٣) يعرف بيفون حجة المجاوزة بقوله: "***plus on va loin, mieux, c'est l'argument du dépassement pousse à aller de l'avant, il est fondé sur la croyance dans le progrés qui veut que le temps qui passe soit marqué par des amelioration croissantes la parole persuasive***", *p187.*

(٢٤٤) "***on peut dire argument d'une relation de coescistence entre les choses que soit en une personne et ses actes, entre un groupe et ses membres ou entre un concept et éléments qui le constituent" parole persuasive***, *p188.*

الخطابات التي تنخرط في الأفعال الأمرية والطلبية والإغرائية[٢٤٥]، معمولة على سلطة الشخص المحتج به، وصورته الرمزية في المخيال الجماعي في سياق الدعوة إلى عمل أو سلوك أو فكرة يشارك المحاجَجين فيها بوجه من الوجوه. كما يقوم العرض الحجاجي على جملة من الأنساق تحقق نجاعته، متوزعة على مستويي الشكل والمضمون لعل أهمها[٢٤٦]؛ اعتماد أسلوب الإطناب الذي يوائم خطة تحريك عواطف السامعين، وإثارة انفعالهم قصد حثهم على اتباع فكرة ما. والتكرار الذي يهدف إلى إبراز حضور الفكرة المقصودة، وتأكيدها، بإحدى كيفيتين فإما أن يكرر الشكل، وإما أن يكرر المضمون، ويعد في المقربة الحجاجية الحديثة استراتيجية بلاغية إقناعية أو ما اصطلحت عله **باربرا جونستون كوتش** بإستراتيجية العرض (presentation)[٢٤٧].

أما الغاية منه بالإضافة إلى أنه وسيلة للسبك المعجمي فجالب لإثارة الخصم والسخرية منه تمهيدا لدحض حجته، ولعل الاطلاع على أسلوب **ابن حزم** في جداله لأهل الملة من فقهاء ومتكلمين خير مثال على هذا المنزع الحجاجي اللغوي الذي تتغلب فيه الرغبة في السخرية والحط من قيمة المجادلين باتهامهم تصريحا أو تلميحا بالسفه والتمويه والتشغيب[٢٤٨]، كما ظهر **لمحمد العبد** ذلك الميل الواضح لدى **طه حسين** في توظيف بنية التكرار لتحقيق غايته الإقناعية[٢٤٩].

---

(٢٤٥) مصداق ذلك قول لشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم.

(٢٤٦) Prelman et Tytecar ,traite de l ' argumentation , p194.

(٢٤٧) انظر: محمد العبد، **الخطاب الحجاجي**، ص٦٤.

(٢٤٨) ابن حزم، **الإحكام في أصول الأحكام**، ١/ ٤٠، ومواضع أخرى عديدة.

(٢٤٩) المرجع السابق، ٦٤ و٦٥ وانظر مقال طه حسين، **"أحسن إلي وأنا مولاك"**، حديث الأربعاء، ٣/ ١٢٩.

أما التطريز الصوتي فيكون بعرض الملفوظ من خلال إظهار مقاطع منه، أو الصمت بين بعض أجزائه في الحالة الشفهية لما في ذلك من وقع على الأسماع، وإثارة لها، وحمل للنفوس على السماع، والإنخراط في الحدث الكلامي[٢٥٠]، كما إن كثرة النصوص المحكية في شأن الموضوع تزيد من قوة الدعوى المطروحة، مما يكون في استحضارها، وتكثيف حالة حضور الفكرة لدى المستمع أو القارئ، وفي الحجاج العربي نرى أمثلة ثرية بهذه النصوص التي تحكي شواهد أو أخبار تاريخية أو نصوص لها قيمة إقناعية عينية، بالإضافة إلى اعتماد اللفظ الحسي الذي يؤكد استحضار المعنى وتجسيده، وكذا العناية باختيار الألفاظ في دلالاتها السياقية، فما يناسب منها مقاما لا يناسب سياقا آخر.

كما لا تخفى تلك القيمة التأثيرية المتصلة باستعمال المقابلة والجناس والطباق وغيرها من فنون الزخرف، فهي ليست مصطنعة في الخطاب للتحسين والتجميل الخارجي، وإنما هي أدوات فاعلة للإبلاغ والتبليغ، بوصفها أنساقا لغوية تدخل في بناء الحجة ذاتها من حيث المماثلة أو المفارقة [٢٥١].

كما تتنزل حجية الصورة البيانية من حيث بنيتها الشكلية التخييلية[٢٥٢]، كالاستعارات والمجازات في سياق قانون الأنفع في الخطاب، فعدول المتكلم عن

---

(٢٥٠) أما عن أثر التنوع الصوتي النطقي في المجال الأدبي على سبيل التأصيل، فينظر مثلا: حازم القرطاجني، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، ص ١٢٢-١٢٣، وابن سنان الخفاجي، **سر الفصاحة**، مطبعة صبيح، القاهرة، سنة ١٩٥٣، ص ٤-٥.

(٢٥١) انظر: طه عبد الرحمن، **"مراتب الحجاج، وقياس التمثيل"**، مجلة كلية الآداب، سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المغرب، عدد٩، سنة ١٩٨٧، ص ١٨.

(٢٥٢) انظر: يوسف الإدريسي، **الخيال والمتخيل في الفلسفة والنقد الحديثين**، مطبعة النجاح الجديدة، ط١، المغرب، سنة ٢٠٠٥، ص٢٣، وانظر محمد الولي، **الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، سنة ١٩٩٠، ص ١٥.

معلومة معروفة بالنسبة إلى توقع المتلقي ومعارفه العامة، باتخاذ إحدى صور المجاز وسيلة تعبيرية، إنما يقع ضمن سياق ما هو أنفع وأجدى للإبلاغ، وأدعى للتأثير الجمالي بوصفه دربا من دروب التأثير النفسي، ووسيلة لا غنى عنها في الاحتجاج على صحة الدعوى المضمرة في بنية الخطاب الجمالي، وبحسب رأي بريلمان لا يمكن فصل الصورة البلاغية عن الوظيفة الحجاجية مطلقا، بل إن قصر درسها جماليا فقط لهو ضرب من تضييع الوقت(٢٥٣)، ذلك إن العقل في الحقيقة التلفظية لا يستغني عن الصورة تماما، بل إنه حين يحلق في اللامادي إنما يعلو على أجنحة من الصور(٢٥٤).

فالاستعارة -مثلا- عامل اقتصاد لغوي مهم، تتيح صياغة دلالية مركزة للمعنى، مما يسهم في تحقيق التلاؤم الدلالي مع المعاني المتعاقبة التي يفرضها السياق(٢٥٥) من جهة، والإسهام في تغيير موقف المتلقي فكريا، عن طرق التأثير الوجداني فيه من جهة أخرى(٢٥٦)، ولذلك نزعم نهوض فلسفة العدول البلاغي على المعطى التداولي الحجاجي للقول المضمر في النص، وإن كان أدبيا.

---

(٢٥٣) Chaim Prelman et Olbrechts Tyteca, Traite de l argumentation, p226-227.

(٢٥٤) مصطفى ناصف، **الصورة الأدبية**، دار الأندلس، ط٢، سنة ١٩٨١، ص٢٧٤. وانظر لايكوف وجونسون، **الاستعارات التي نحيا بها**، ص ١٨٦.

(٢٥٥) صلاح فضل، **بلاغة الخطاب وعلم النص**، ص٢٧٧.

(٢٥٦) انظر: أبو بكر العزاوي، **نحو مقارة حجاجية للاستعارة**، مجلة المناظرة، عدد٢، مجلد٤، سنة٢٠٠١، ص ٨١، وانظر أيضا: ميشيل لوجيرن، **الاستعارة والحجاج**، مجلة المناظرة، عدد٢، عدد٤، سنة ١٩٩١، ص٨٧-٨٨، وانظر: علي محمد علي سلمان، **كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج، رسائله نموذجا**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت، سنة ٢٠١٠، ص٢٤١

وتذهب روس في هذا السياق إلى أن الصورة البلاغية من حيث كونها عملية أسلوبية ذات وظيفة إقناعية متى ما دعمت بالحجج العقلية والمنطقية ضمانا لكفاءتها الإقناعية، فهي على ميزان القوة والضعف متأرجحة، تحدد قوتها الإنجازية بالمعززات الحجاجية[٢٥٧]، ولعل الانتقال من صورة التركيب الخبري التقريري الوصفي إلى صور التركيب الإنشائي، تعكس هذا التلبس الحاصل بين ما يقال وما يراد إنجازه فعلا [٢٥٨]، بخاصة وأن الصورة الأدبية قائمة على المعاني المضافة إلى المعنى الأصلي المستفاد من العبارة الظاهرة، فهذه الأخيرة هي التي ستعمق درجة الإقناع بالنتيجة التي يتوجه إليها الملفوظ[٢٥٩].

كما إن التعبير بالمجازات في الحقيقة ليس إلا تحقيقا لمطابقة المقال للحال؛ فلكل موضع اتصالي شكله الموائم له، والخادم لغرضه التبليغي، يقول ابن خلدون: "...*والمقامات مختلفة، ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبات أو إشارة وكناية واستعارة...*"[٢٦٠]. إن العناية بهذه الوسائل تكون على حسب الحال، وكثرة الحشد وجلالة المقام على حد تعبير ابن قتيبة [٢٦١]. ولعل عرض هذه التقنيات ختاما بتجريدها من خلال هذه المخطط يكفي لإيضاح الصورة، ولم شتاتها:

---

(٢٥٧) هنريش بليث، **البلاغة والأسلوبية**، ص٦٦. وانظر وظائف الاستعارة اللسانية والجمالية في: صلاح فضل، **بلاغة الخطاب وعلم النص**، ص٢٧٨.

(٢٥٨) عبد الله صولة، **الحجاج، أطره ومنطلقاته**، ص٤٦.

(٢٥٩) المرجع نفسه، ص٤٨. وانظر: عمر أوكان، **اللغة والخطاب**، ص١٣٤.

(٢٦٠) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٤٧٠.

(٢٦١) ابن قتيبة، **تأويل مشكل القرآن**، تحقيق أحمد الصقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، سنة ١٩٥٤، ص ١٠-١١.

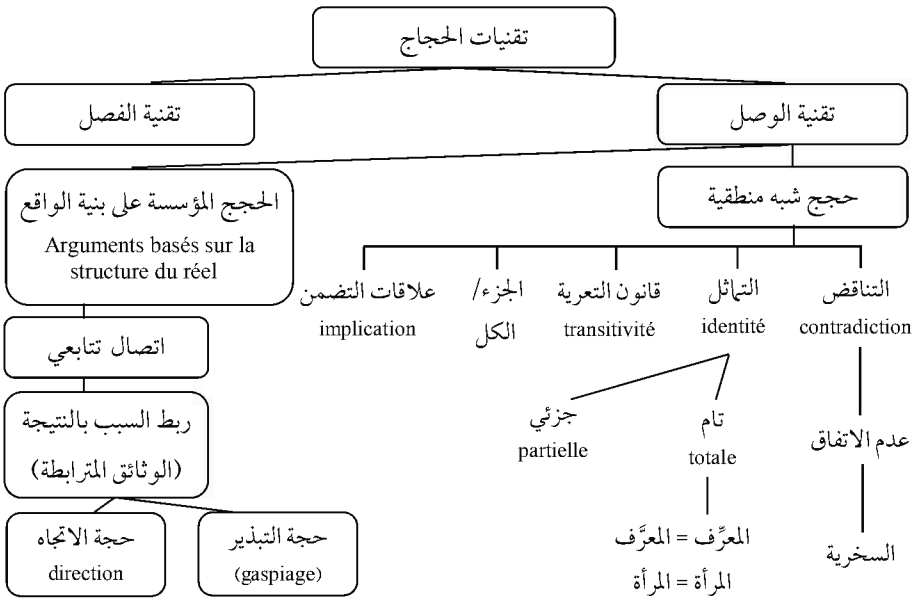
تقنيات الحجاج
تقنية الفصل
تقنية الوصل
الحجج المؤسسة على بنية الواقع
Arguments basés sur la structure du réel
حجج شبه منطقية
علاقات التضمن
implication
الجزء/ الكل
قانون التعرية
transitivité
التماثل
identité
التناقض
contradiction
اتصال تتابعي
ربط السبب بالنتيجة
(الوثائق المترابطة)
حجة الاتجاه
direction
حجة التبذير
(gaspiage)
جزئي
partielle
تام
totale
عدم الاتفاق
المعرِّف = المعرَّف
المرأة = المرأة
السخرية

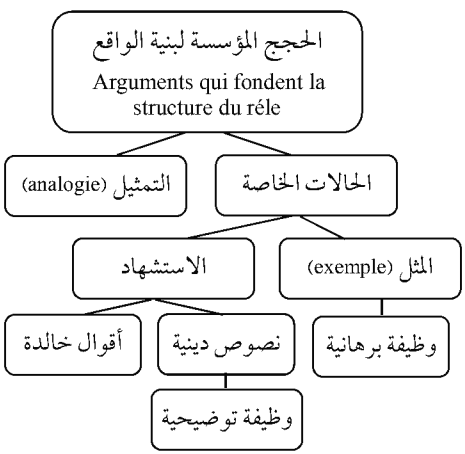
الحجج المؤسسة لبنية الواقع
Arguments qui fondent la structure du réle
التمثيل (analogie)
الحالات الخاصة
الاستشهاد
المثل (exemple)
أقوال خالدة
نصوص دينية
وظيفة برهانية
وظيفة توضيحية

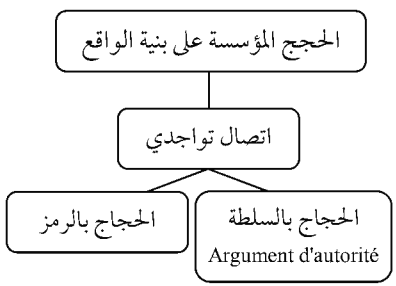
الحجج المؤسسة على بنية الواقع
اتصال تواجدي
الحجاج بالرمز
الحجاج بالسلطة
Argument d'autorité

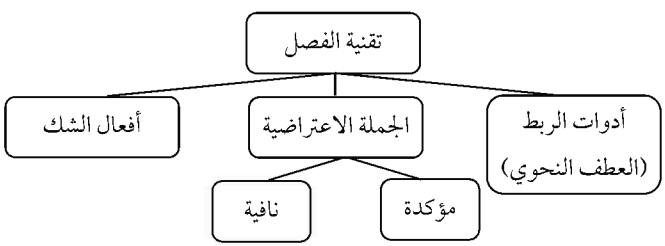
تقنية الفصل
أفعال الشك
الجملة الاعتراضية
أدوات الربط
(العطف النحوي)
نافية
مؤكدة

كما يتأسس مشغلنا في هذا المقام أيضا على تحديد الموجهات التعبيرية (modalité d'expression) اللغوية التي تضطلع بوظيفة الحجاج اللساني في النص المعين، ومنها النفي (négation) الذي يعني ردا على إثبات فعلي أو محتمل حصوله [٢٦٢]. بالإضافة إلى أدوات الربط التي تفيد من حيث وظيفتها النصية الربط بين أجزاء الخطاب بعامة، وتعليق النتائج بمقدماتها بخاصة في المحاججة[٢٦٣]، ومن بين هذه الأدوات حروف العطف المستعملة في العطف الوصلي مثل: الواو، الفاء، ثم، حتى، والعطف الفصلي أو، بل التي تفيد ترتيب الحجج المتعاكسة[٢٦٤]، لكن، أم[٢٦٥].

ويقوم الخطاب الحجاجي بوصفه خطابا لسانيا على وسائل تحقق نصيته بالدرجة الأولى، من حيث وظيفة الربط التي تضطلع بها لتحقق تماسكه واتساق أجزائه، وتعمل في المستوى التداولي على الربط بين الحجج، وتحديد قيمتها التأثيرية بناء على توزيعها البنوي في نظام الخطاب، وعملها الإسنادي إذ تتكفل الروابط بإسناد أدوار تداولية حجاجية معينة للوحدات الدلالية داخل الأقول المنشأة، سواء كانت روابط إدراجية للحجج مثل: حتى – بل – لكن – مع ذلك، أو كانت روابط إدراجية للنتائج مثل: إذن – لهذا – بالتالي[٢٦٦].

---

(٢٦٢) Prelman et Tytecar ,traite de l ' argumentation , p208

(٢٦٣) انظر: أحمد المتوكل، **اللسانيات الوظيفية**، ص٢٥٤.

(٢٦٤) انظر: أبو بكر العزاوي، **"سلطة الكلام وقوة الكلمات"**، مجلة المناهل، وزارة الثقافة والاتصال، المغرب، سنة ٢٥، عدد٦٢-٦٣، مايو، سنة ٢٠٠١، ص ١٤٤-١٤٥.

(٢٦٥) لمزيد من التوسع في الوظيفة التداولية للروابط الحجاجية، ينظر: Tutescu Mariana, Largumentation, introduction a l etude du discours chap 6, p293-324.

(٢٦٦) يعتمد الحجاج آليات بعضها لغوي تمثله أدوات التعليل والشرط، بالإضافة إلى الوصف وتحصيل الحاصل، والحجاج بالتبادل، كما تدرج الروابط الحجاجية آنفة الذكر في الآليات

أما العامل الحجاجي فمهمته تقييدية لما يمكن أن يدل عليه القول المنجز من احتمالات دلالية[٢٦٧]. ومن جهة ثانية تمثل هذه الأدوات البنيات اللغوية التي يلجأ لها المتكلم لتحقيق خطته الإستراتيجية، موفرا بذلك القبول لكلامه عند المخاطب[٢٦٨]، هذا وقد أكدت الدراسات الدائرة حول الحجاج عدم كفاية الوسائل الحجاجية المذكورة آنفا من رابط وعوامل حجاجية في مستوى العرض والبرهنة لنجاح العملية الحجاجية إذ لابد من قيام الحدث الحجاجي على جملة من القوانين العامة والمبادئ الحجاجية الضامنة لعلاقة سليمة بين الحجة ونتيجتها، تمتاز بعموميتها، وخضوعها لفكرة الشائع والمشهور في العرف الاجتماعي من قبيل المعتقدات والبدهيات.

شبه المنطقية (التعدية – أفعل التفضيل – صيغ المبالغة)، أما الآليات البلاغية فيمثلها المجاز المرسل والاستعارة والتشبيه والمحسنات البديعية من طباق وجناس وتورية، ولعل العناية بإبراز الدور الحجاجي لهذه الأنساق هو مطمح كل تحليل تداولي يرمي إلى استكشاف الكفاءة الحجاجية للنصوص المختلفة ،انظر الفاسي الفهري، **المعجم العربي، نماذج تحليلية جديدة**، دار توبقال، ط١، الدار البيضاء، سنة ١٩٨٢، ص ٤٨.

(٢٦٧) يمثل للروابط الحجاجية في اللغة العربية ببعض حروف المعاني مثل: بل – لكن– حتى– لاسيما – إذن – لأن – بما أن – إذ...، كما يمثل للعوامل بـ: ربما – تقريا – كاد – قليلا – كثيرا – أسلوب القصر...إلخ. يذكر أبو كر العزاوي أن مفهوم العامل الحجاجي قد دخل في نظرية دي كرو سنة ١٩٨٢ من خلال مقال له بعنوان: L argumentation et l acte d argumenter، انظر أبـو بكـر العزاوي، مرجع سابـق، ص٦٤. وانظر في القيمة الدلالية للروابط المعنوية في ضوء متغيرات الدلالة السياقية: J.Moschler.A.Reboule,Dictionnaire Encyclopedique de Pragmatique, p185.

(٢٦٨) انظر: **نظرية الأدب في القرن العشرين**، ص ٦٥.

كما تتسم بنسبيتها من حيث قابليتها للدحض وفقا لمجريات السياق اللغوي والاجتماعي[٢٦٩].

كما تتناول الدراسات نوعا حجاجيا يبتغي التأثير عن طريق التخطئة، وهو الحجاج المغالطي، ويبنى هذا النوع على المغالطة في تقديم الحجة، ويعبر عنه باللغة الفرنسية بمصطلح (Paralogisme) المتكون من جزئين هما (Para) ونعني به خاطئ و(Logisme) بمعنى الحجة، وربما أضاف بعضهم صفة النية الحسنة لهذا النوع؛ ليتميز في التفكير الفلسفي عن مصطلح (Sophisme)[٢٧٠].

ولعلنا نقترب من مفهومه في ضوء تصور الجاحظ له، فهو في نظره إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الحق في صورة الباطل[٢٧١]، وهو بهذا يقدم على المقايسة الواهمة على حد تعبير ابن رشد[٢٧٢].

كما تسبب في حدوثه عيوب بنويه أثناء تأسيس المحاججة كالمصادرة على المطلوب، أو الأخطاء الناجمة عن تعدد الأسئلة؛ وربما أمكننا التمثيل للمغالطة

---

(٢٦٩) Traite de l argumentation , p191-248

(٢٧٠) السفسطة انزلاق من دائرة المعقول والأخلاق اللذين يعتمدهما الحجاج إلى دائرة الهوى والاستهواء، اللذين يتوسلان المغالطة والمخادعة والعنف اللغوي بشتى أنواعه، انظر: محمد العمري، **دائرة الحوار ومزالق العنف**، إفريقيا الشرق، ط١، الدار البيضاء، سنة ٢٠٠٢، ص ١٢، وعلي محمد علي سلمان، **كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج، رسائله نموذجا**، ص٣٥٦.

(٢٧١) الجاحظ، **البيان والتبيين**، ١/ ٢٢٠.

(٢٧٢) ابن رشد، **تلخيص المنطق**، دار الفكر اللبناني، بيروت، مجلد ٠٧، كتاب سوفسطيقي، ص٦٦٩ وما بعدها.

الحجاجية بقولنا: إن أمريكا دولة نووية وقوة اقتصادية فهي إذن على حق في حربها على العراق، إذ يشمل هذا النوع من المغالطة الحجاج بالسلطة[٢٧٣].

ومن أنواع الحجاج الخاطئ أيضا المغالطة المنطقية؛ ونزعم التمثيل لها بمناظرة الشاعر العباسي "أبي العتاهية " لثمامة بن الأشرس[٢٧٤]، والمغالطة العلمية التي تشخص في تناقض أقوال المتكلم وأفعاله، وربما مثلنا لها في النص القرآني بقوله تعالى ﴿ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ ﴾ البقرة، الآية: ٤٤.

وأما الحجاج المبني على التناقض الإثباتي فتبينه الآية من سورة مريم: ﴿ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ ﴾ مريم، الآية: ٢٦. فقد ذهب بعض المفسرين إلى أنها لم تنذر في الحال بل صبرت حتى أتاها القوم، فذكرت لهم كونها نذرت، فيكون هذا منها تناقضا فقد تكلمت من حيث نذرت عدم الكلام بينما ذهب آخرون إلى إمساكها وإكتفائها بالإيماء بالرأس[٢٧٥].

ومن أدوات الحجاج اعتماد التهديد والترهيب أسلوبا للإقناع الخطابي في النصوص الدينية والسياسية، ويمكن أن نجد لهذا النوع من الإقناع الذي ينحو منحى استسلاميا أمثلة متعددة في الخطابة العربية كخطبة زياد بن أبيه لأهل البصرة، وخطبة الحجاج لأهل العراق[٢٧٦]، وخطبة زيد بن المقنع العذري الذي سعى في ضمان ولاية العهد إلى يزيد بن معاوية، فخطب في حضرة معاوية (ض) قائلا: "هذا أمر أمير

---

(٢٧٣) عن حجاج السلطة وما يحيل عليه من معاني الثقة المطلقة والخبرة والتفويض والسلب، ينظر: Bruton, Largumentation dans la Communication, p61-67

(٢٧٤) الأصفهاني، **الأغاني**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢، ٤/ ٥و ٦.

(٢٧٥) الرازي، **التفسير الكبير**، ٢١/ ٢٠٧.

(٢٧٦) الجاحظ، **البيان والتبيين**، ط١، القاهرة، ١٩٦٠، ٢/ ٦٣.

المؤمنين وأشار إلى معاوية، فإن هلك.. وأشار إلى ولده يزيد فان أبيتم فهذا .. وأشار إلى سيفه".

١٠- إستراتيجية الخطاب الحجاجي

تتكون البنية المقطعية الحجاجية من ستة مكونات، يصورها المخطط التالي:

المقدمات (تقرير المعطيات)

↓

الدعوى (النتيجة)

↓

التبريرات

↓

الدعامة

↓

مؤشر الحال

↓

الاحتياطات

والظاهر أن الدعوى من حيث هي نتيجة مذكورة في المحاججة تستهدف استمالة الآخرين قد يصرح بها، وقد تذكر ضمنيا، أما المقدمات فهي القضايا المنطقية الممهدة للنتيجة والمرتبطة بها منطقيا بوساطة التبرير الذي يكون مبدأ عاما يبرهن على صلاحية العلاقة بين الطرفين.

فيما تتلخص وظيفة الدعامة في جملة الحجج المقدمة من لدن الطرفين لنصرة موقفيهما، أما مؤشر الحال فهو تعبيرات تمكن للدعوى لتتحقق واقعيا مثل: من الممكن، على الأرجح، من المحتمل، يتوقع ...إلخ، بالإضافة إلى التحفظات التي تبين الأساس الذي ينهض عليه الحكم بعدم مقبولسية الدعوى[٢٧٧]. أما شكل القاعدة الحجاجية فيمكن تصوره بالطريقة الآتية[٢٧٨]:

ق(قضية١).....لكن.....ك(قضية٢)

نتيجة=ليس من ....-نتيجة هو من

إذن هو

وعلى هذا يقوم الحجاج على خط قولي، تمثله سياسة إقناعية، وأهداف معرفية ونفسية واجتماعية يسعى الترابط الحجاجي إلى إنفاذها في الواقع للمحاجَجين، والإستراتيجية الحجاجية بهذا التصور طريقة وأداة وغاية يستجمع بها المحاجِج عناصر التأثير المحددة لتوجيه الموقف والفعل والرؤية لدى المحاجَجين في وضعيات تواصلية معينة تسنح بشرح الفكرة وتدعيمها في أنظار المتلقين، فالإستراتيجية خطة حاضرة مضمرة عن الأنظار في الآن نفسه، تستكشف بعمل التأويل[٢٧٩]، بل إن الخطاب ليس شيئا آخر غير الاستراتيجية التي تكون عالم تفسيراته المشروعة على حد زعم **هنريش بليث**[٢٨٠]، يسترشد إليها بالعلامة اللسانية والسياق الحالي المنتج للفعل التلفظي[٢٨١].

---

(٢٧٧) انظر: محمد العبد، **بنية الخطاب الحجاجي**، ص٤٥.

(٢٧٨) J.Moeschler, A.Reboul, Dictionnaire Encyclopedique de Pragmatique, p2-86-283-285

(٢٧٩) Bonge,Analuse conversationnelle et theorie de l action, Didier, Paris,1992, p22-27

(٢٨٠) انظر: هنريش بليث، **البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص**، ترجمة محمد العمري، إفريقيا الشرق، بيروت-، سنة ١٩٩٩، ص ١٣٦.

كما تقـوم الإستراتيجية الحجاجية من خـلال تفاعل سياستين قوليتين تعتمد إحداهما على توسيع دوائر الإدراك العقلي العادي إلى الغيب اللامتناهي والممكنات اللامحـدودة ومن معنى المعنى إلى المعنى الرمـزي التخييلي الذي لا يكشف بالعقل ومسلماته المنطقية وإنـما يتحسس بالقلب والوجدان، وثانيهما وهـي سبب لحصول الأولى تتمثل في تحـرير العلامة من مرجعها، وفـك الارتباط الإلـزامي بين الدال ومدلوله ليسبح فـي فـضاء الدلالات الإشارية اللامتوقعة(٢٨٢)، لتتحقق بذلك فكرة اعتباطية الدليل اللساني التي قررها **فردينان دي سوسير** في منظوراته اللسانية(٢٨٣).

وتتأكد أهمية النظر في الدلالات الهامشية والحافة التي يثيرها الرمز في الخيال الإنساني والتي تختفي وراء طبقات جليدية يصعب خرقها على المتلقي العادي، فهي جوهر مكنون وسر محجوب يوصل إليه بالقلوب لا بالعقول والنصوص، وفي هذا السياق تتجدد سلطة البيان اللغوي بوصفه إطارا للحجاج البلاغي واللساني، لتحل معه سلطة أعلى لا تقنع وإنما تسحر متلقيها فتسلبه الإرادة إنها سلطة المعرفة (العرفان) الوجـداني بما تحيـل عليه من وحـدوية وحلـول وتقمص وذوبان في ذات النـص والمخاطِب معا، ومعنى ذلك إن رحلة المعنى بوصفه حقيقة مستورة مطلوبة ستكون

---

(٢٨١) عن اتصال الإستراتيجية بالحرب ومفهوم اللعبة والحرب اللغوية ينظر تفصيلا عز العرب لحكيم لبناني، **حدود التواصل، الإجماع والتنازع بين هابرماس وليونار منانغريد فرانك**، إفريقيا الشرق، ط١، ٢٠٠٣، ص ٢٩.

(٢٨٢) انظر: علي الشبعان، **الحجاج و الحقيقة وآفاق التأويل، بحث في الأشكال والإستراتيجيات**، ص٤٣١ و ما بعدها.

(٢٨٣) F.D.Saussure, cours de lingiustique générale Publie par Charles Bally et Albert Sechehaye Payot ,Paris .1960, p100,Et voir aussi Ducrot (O), Todorov (T), Dictionnaire Encyclopédique des Sciences du Langage, op.cit, p131-146.

باتجاه معاكس مخالف لمنطق الرؤية الطبيعية، هذا وقد عرض **"علي الشبعان"** في دراسته "الحجاج والحقيقة" إلى أنواع الإستراتيجية المرتسمة في الخطاب الحجاجي، مبينا كونه بنية لغوية مركبة تنفعل بالمقامات، وتتأثر بالأسيقة المختلفة، مما يعني تفرع الإستراتيجية إلى إستراتيجيات مختلفة هي[٢٨٤]:

١- إستراتيجية حجاجية ظاهرة قوامها البيان القاطع.

٢- إستراتيجية نفي التنازع (الانسجام).

٣- إستراتيجية القويم والتهذيب.

٤- إستراتيجية صون المعتقد.

٥- إستراتيجية الطاعة والمصالحة بين الذات والآخر. وأما الإستراتيجية المضمرة التي تتجاوز اللغة الواصفة من حيث تشكلها الضمني في الخطاب، فقد حددت بالأصناف التالية من خلال دلالتي الاقتضاء والتضمن.

أ) إستراتيجية التجسيم من خلال توسل الخطاب النبيه إلى الأصل المجسم في أشخاص معنيين لهم مصداقية المعرفة الصافية (الصحابة/ السلف) مثلا.

ب) إستراتيجية إقامة السلطان وتوطيد المذهب.

ج) إستراتيجية بلوغ المرتبة (القداسة).

د) إستراتيجية الأصل والتابع[٢٨٥].

---

(٢٨٤) انظر: علي الشبعان، **الحجاج و الحقيقة**، ص ٢٦و١٨٩ وما بعدها إلى ١٩٤. وانظر أيضا:
Francis, Jacques, Argumentation et Strategies discursives, in Largumentation ,Colloque de Cerisy(textes edites par Alain Limpereur)ed LIEGE, 1991, P153.

(٢٨٥) يذهب علي الشبعان في دراسته سالفة الذكر إلى أن الإستراتيجية التوحيدية تقوم على توحيد العقيدة وتوحيد منهج الرؤية والتفسير وواحدية الرؤية والنظر من خلال تلازم السياسي مع الديني في التفسير الأثري، ص٢٠٤ وما بعدها.

هـ) إستراتيجية المعنى الأصل والأوحد، وحتى يحقق الحجاج أهدافه الإقناعية والتأثيرية بشرط أن يكون المحاجج ملما بالجوانب النفسية والاجتماعية والثقافية واللغوية المتصلة بالمحاججين، إذ تقوم بينها علاقة مؤسسة على الاحترام المتبادل بخاصة في السياق الخطابي المكتوب الذي يغيب فيه المحاور الحقيقي ليتحول إلى محاور افتراضي يتخيله مؤسس الحجاج(٢٨٦).

ولعل من أهم التقنيات التي يقوم عليها المحاجج لفهم الإطار الحجاجي التوقعي للمحاجج الدخول معه في حوار جاد يهدف إلى تبيان الحقيقة مركزا على مسلماته ومعتقداته وافتراضاته بموضوعية وعلمية لا يشوبها تحايل أو تجاهل وتحقير للتصورات والنتائج(٢٨٧).

إن العمل الاستباقي الذي يضطلع به المحاجج لكشف توقعات المحاجج وردود أفعاله وأقواله هو الهدف الأسمى الذي لابد من الوصول إليه بالمحاورة والتساؤل في تصور بريلمان ليحقق الحجاج فعالية، ويضمن المحاجج احتواء عالمه لعالم المحاججين(٢٨٨)، وفي سياق توصيف الشروط التي تؤسس لظهور محاجج ناجح يمكن التذكير ببحث "آن روبول" للمحاجج على ضرورة استغنائه عن التحريض (Manipulation) والالتفات (Apostrophe) والتجسيد (Prosopopée) والساخر (Chleuasme)(٢٨٩)، فيظهر انشغال المحاجج الكاتب- مثلا- بقرائه (المتلقي/ الجمهور) من خلال علامات لغوية عديدة منها قوله: اعلم-ألا ترى غايتها إدماج المتلقي قي

---

(٢٨٦) traité de l'argumentation, p18-19-38.

(٢٨٧) Ibid, p49-50-58.

(٢٨٨) traité de l'argumentation, p29-30.

(٢٨٩) آن روبول، **هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي**، ص٧٠.

مقاصد المحاجِج - الحوارية والتفاعل من خلال توظيف عبارة "فإن قلتَ قلتُ"، وهذه البنية التساؤلية (سؤال / جواب) تضع الخطاب المنجز على مسار التفاعل الحواري والحجاجي الذي يوجه الفكرة وينتج الدلالة المقصودة[٢٩٠].

كما إن طبيعة الأسئلة المطروحة تكشف عن هوية الجمهور المحاجَج من ناحية أفقه الفكري، وعمق تصوراته للمسألة، فتنوع الجمهور مقولة تحكم الأنماط الحجاجية وتوجهها نحو الإقناع أو الاقتناع[٢٩١]. وتقوم نجاعة الخطاب الحجاجي على حسن المواءمة بين المقدمة الحجاجية وطريقة عرضها، ولا يتأتى ذلك للمحاجِج حتى يتمكن من اختيار المعطيات المناسبة من حيث شهرتها ومشاركة المتلقين فيها مما يحملهم على الإذعان دوما، إلا أن اختيار المعنى لا بد له من حامل شكلي ينقله إلى المحاجَج ليصيره حدثا كلاميا وفعلا لغويا منجزا بشكل مباشر (صريح) أو غير مباشر (ضمني) يدرك من معينات السياق ومحددات المقام الحالي، وفي المستوى التأويلي يمكن القول بأن تأويل العلاقة التداولية بين البنية والعمل الذي تنتجه في مقام التحاور يكون صورتين متضادتين للمحاجِج في مقابل المحاجَج فإذا كان الأول عالما مقتدرا مرجحا قاطعا فإن الثاني بعكسه تماما.هذا وينتج الخطاب الحجاجي سلمية من الحجج (*Les echelles argumentatives*) المرتبة ترتيبا موجها لدلالة التأثير باللغة[٢٩٢].

يمكن تتبع بنيتها ووظيفتها الحجاجية من خلال تنزيل الحجج في فئات أو حقول متباينة من حيث موضوعها وطبيعتها الشكلية، كما يتم تمييز وحدات كل فئة أو

---

(٢٩٠) انظر: علي الشبعان، **الحجاج واحقيقة**، ص٢٣٩.

(٢٩١) preleman-Teteka, p40-46."***le point de départ de l'argumentation supposent accord de l'auditoire***", P87.

(٢٩٢) انظر: أبو بكر العزاوي، **اللغة والحجاج**، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ص٢٦.

حقل اعتدادا بمفهوم القوة الإنجازية للفعل الكلامي، وفي هذا السياق حدد دي كرو مجموعة ضوابط تعد قوانين حاكمة لعمل الحجة دخل السلمية الحجاجية، لعل أهمها قانون النفي وقانون القلب وقانون الخفض، فأما قانون النفي فيقضي أن نفي قول ما يعد حجة لصالح النتيجة المضادة .

وأما قانون القلب فيعني أن السلم الحجاجي للأقوال المنفية سيكون عكسا للسلم الحجاجي الخاص بالأقوال المثبة، مما يعني أنه *إذا كانت حجة أقوى من أختها في الاحتجاج لنتيجة ما، فإن نقيض الحجة الثانية سيكون أقوى من نقيض الأولى في الاحتجاج للنتيجة المضادة*[٢٩٣] .

أما قانون الخفض فقد حدّد طه عبد الرحمن قيامه على ربط صدق القول في مراتب معينة من السلم بصدق وقوع نقيضه في المراتب التي تقع تحتها[٢٩٤]. فالعملية الحجاجية تخضع من هذا المنطلق لموازين القوة بين الأطراف التي تتنازع وضعا معينا، ذلك إن إضافة معلومة أو حجة جديدة إلى مجموعة من الحجج يمكن أن يغير من قوتها لنعيد ترتيبها من جديد في سلم تراتبي يجعلها تتلاءم مع مجرى الحوار، فكل جزم لقضية ما هو مؤقت في انتظار غلق الحوار[٢٩٥]. فإذا كان للقول وجهة حجاجية تحدد قيمته باعتباره يدعم نتيجة ما، وإذا كان القول مندرجا ضمن قسم حجاجي قائم على

---

(٢٩٣) انظر: أبو بكر العزاوي، **الحجاج في اللغة**، ص٦١، وانظر أيضا Les echeles argumentatives, p27.

(٢٩٤) انظر: طه عبدالرحمن، **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ١٩٨٧، ص١٠٥ . وانظر: **لسان الميزان**، ص ٢٧٧ وانظر أيضا تلخيص ذلك في: أبو بكر العزاوي، **الحجاج في اللغة**، ص ٦٢ و انظر: Les echeles argumentatives, p32.

(٢٩٥) انظر: حسان الباهي، **العلم والبناء الحجاجي**، ص ٢٣٥.

قوة بعض مكوناته، وضعف بعضها الآخر بالنسبة إلى نتيجة ما، فإن مفهوم السلم الحجاجي بتركيزه على الطابع التدرجي، والموجه للأقوال يبين أن المحاججة ليست مطلقة، إذ لا تتحدد بالمحتوى الخبري للقول، ومدى مطابقته لحالة الأشياء في الكون، وإنما هي رهينة اختيار هذه الحجة أو تلك بالنسبة إلى نتيجة محددة، لذلك فالحكم على المحاججة أساسه القوة والضعف، واعتبار الطابع التدرجي فيها[٢٩٦].

إن القيمة الحجاجية للملفوظ لا تتصل بحصيلة المعلومات المقدمة فيه فقط، بل إن تضمن جملة من جمله باعتبارها مكونا أساسا فيه لوحدات نحوية وتعبيرات معينة، بالإضافة إلى المحتوى المعبر عنه بوساطتها، تمكن من إعطاء توجيه حجاجي للملفوظ، وتوجيه المتلقي إليه بسلطة اللغة أصالة .

خاتمة المبحث

يعنى تحليل الخطاب مبدئيا بالكشف عن الآلية الحجاجية المتحكمة في نظام الخطاب، من خلال رؤية كلية تستكشف علاقات الترابط الحجاجي، ومنظومته الحجاجية التراتبية، في سياق تحليل وظائفه التداولية العامة[٢٩٧]، وذلك من خلال رصد حركة التقنية الحجاجية المتبعة من لدن المحاجج لترسيخ رؤيته، والدفاع عن أطروحته، لكي يقتنع بها الآخرون[٢٩٨]، وفي هذا الإطار تشير آ. **موشي** (Amossy.Ruth) في كتابها الذي يؤرخ إلى أهم المقاربات التحليلية التي تتخذ من الخطاب الحجاجي مركز انتباه وجذب ومباشرة إلى تعدد المداخل الوصفية والتعبيرية لحدث التلفظ الحجاجي، مميزة بين:١- المقاربة اللغوية، ٢- المقاربة التحاورية، ٣- المقاربة التحاورية التفاعلية،

---

(٢٩٦) انظر: شكري مبخوت، **نظرية الحجاج**، ص ٣٧٠.

(٢٩٧) "Il y-aura lieu d analyser le discours dans son ensemble surtout quand on traite de l ampleur de l argumentation ainsi que de l ordre des arguments ,l empire rhitorique, p74

(٢٩٨) Philippe Breton, Largumantation dans la communication ,p39.

٤- المقـاربة النوعية (الأجناس)، ٥- المقاربة الأسلوبية، ٦- المقاربة النصانية[٢٩٩]؛ والحقيقة أن تعدد هذه المداخل والمقاربات راجع إلى طبيعة الخطاب المعقدة بدرجة أولـى، فبالرغم من إمكان التمييز الشكلي والوظيفي بين أنـواع الخطاب السردي والحكائي والتفاعلي والحواري، انطلاقا من مبدأ الهيمنة إلا أن الحجاج موجود في كل منها، وإن كان وجوده مختلفا من حيث البعد التداولي[٣٠٠]، كما إن الحجاج منه بشكل خص متعدد التكوين والمستويات والغايات.

إن تعدد هذه المقاربات ينبئ عن ضرورة ربط الحجاج بحقل تعيينه، أي نوع الخطاب والنص المحيط به، وعدا ذلك التأطير بمقاربة محددة يجعلنا كمن يبحث عن حجاج متعال وخالص ومجرد من أسباب وجوده[٣٠١]، هذا ويمكن القول بالنظر إلى ما حددته الباحثة إن الحجاج هو فعالية لسانية تواصلية بين متكلم ومستمع، تقوم على التحاور والأخذ والرد والتفاعل المفهومي والثقافي ضمن سياق التخاطب وظروف إنتاجه الاجتماعية، مما يعني الكشف عن قائله ومتلقيه، وظروف تلقيه له، والمنطق الذي يحكمه[٣٠٢]، مما يعني ضرورة العناية بتكوينه الطبقي واختياراته الأسلوبية بوجه خاص، ومحدداته البلاغية التي تميز نوعه ضمن سلسلة من الأنواع النصية المتداخلة

---

(٢٩٩) Amossy, l'argumentation dans le discours, discours politique, littérature d'idées, fiction nathan, paris,2000, p23-24.et voir Reboul, Moscler, Pragmatique du discours de l interpretatio de l enonce a l interpretation du discours Armand Colin ,Paris ,1998,p10-17

(٣٠٠) انظر: حبيب عراب، **الحجاج والاستدلال الحجاجي**، ص ١٣٤.

(٣٠١) المرجع نفسه، ص١٠٠.

(٣٠٢) **Lanalyse de l argumentation dans le discours tient compte du dispositive d enunciation (qui parle? A qui, dans quelle situation de discours, et de dynamique .interactionnelle , selon quelle logique et en fonction de quelles strategies s effectue l echange entre les partenaires mais elle accorde aussi une *importance privilegiee au donnees institutionnelles sociales et historique, AVANT PROPOS.VII***

في حدث الكلام، والتي تشير بنيتها النصية إلى انسجام واتساق داخلي يضبط الإستراتيجية الحجاجية[٣٠٣]، لقد استغرقت هذه المقاربات بوصفها بنائية للخطاب الحجاجي جهود المدارس الحديثة في البلاغة المعاصرة عند نفر من الباحثين مثل **بريلمان وتيتكا وأبوستال (apostul) وفون رايت (Von Wright) وقريز (Grise) وتولمين (Toulmin) وديكرو اسكومبر (Ducrot,Auscombre) وإيميرين (Van Emern) وجروتنندورست (Grootendorst)**[٣٠٤].

---

(٣٠٣) Ibid. p24."***en donnant au terme de texte les sens d'un ensemble cohérent et énoncés q forme un tout, le discours argumentatif do être étudier au niveau de sa constructio textuelle*".**

(٣٠٤) ***Tutes ou (mariana), l'argumentation, introduction a l'étude du discours, edituna universtatu din bucuresti) 1998, p15-68.***